"النازية الهندية" في عهد ناريندرا مودي

مائتي مليون مسلم في الهند.. تعتبرهم حكومة رئيس الوزراء الهندوسية القومية أعداءً داخليين.

كتبه: دِكستر فِلكِنز | 2 ديسمبر 2019[1]
ترجمه: أسامة خالد

في الحادي عشر من أغسطس وبعد أسبوعين من إرسال رئيس الوزراء ناريندرا مودي جنوداً ليعيدوا الهدوء إلى كشمير، ظهرت مراسِلةٌ في مدينة سريناغار على القناة الإخبارية "Republic TV" لتأكّد للمشاهدين أن الوضع كان هادئاً جداً أيّاً كان ما يسمعونه. قالت: "الوضع يعود إلى طبيعته، والأهالي مستعدون ليعيشوا حياتهم بشكل طبيعي من جديد"، إلا أنها لم تجرِ أية مقابلات؛ لم يكن هناك أحد في الشوارع لتتحدث معه.

تغطيةٌ أخرى لقناة "Republic TV" أظهرت الناس يرقصون بسعادة بالغة وإلى جانبهم عبارة: "هنودٌ مبتهجون يحتفلون بالخطوة الحكيمة لمودي في كشمير". قبل ذلك بأسبوع أعلنت حكومة مودي أنها ستوقف العمل بالمادة 370 من الدستور، التي تمنح كشمير الحق بحكم ذاتي، وهي المدينة الوحيدة التي فيها أغلبية مسلمة في الهند. نصُّ المادة – الذي كُتب للمساعدة في الحفاظ على الهوية الدينية والعرقية للولاية – يمنع الأغلبية الهندوسية في الهند من الإقامة هناك. وقال مودي إن القرار سيساعد الكشميريين من خلال النهوض بالتنمية وإعاقة تمرد العصابات القائم منذ زمن طويل. ولكي يضمن استقبالاً سلساً لهذا القرار، ملأ مودي كشمير بالقوّات، واعتقل مئات المسلمين البارزين، وهي خطوة وصفتها قناة "Republic TV" بقولها إن "القادة الذين كانوا سيُحدِثون مشاكل" قد وُضِعوا في "بيوت ضيافة حكومية".

لقد قلب التغيير الحاصل في كشمير الوضع القائم لأكثر من نصف قرن اتُّبِعت خلاله سياسة حذرة، لكن الصحافة الهندية ردَّت على هذا التغيير بقبولٍ شبه مُجمَّع عليه. منذ أن انتُخِب مودي لأول مرة كرئيس للوزراء في عام 2014، صار يعيد صياغة قصة الهند، من الديمقراطية العلمانية التي تستوعب تنوعاً سكانياً على نحوٍ فريد، إلى بلد هندوسي يهيمن على الأقليات.. خاصة المسلمين البالغ عددهم في البلاد مائتي مليون.. قام مودي وحلفاؤه بالضغط على الصحف وتخويفها وخنقها لتأييد ما يسمونه "الهند الجديدة".

استقبل الكشميريون قرار مودي بالاحتجاجات، بدعوى أن هدفه الحقيقي كان إغراق كشمير بالمستوطنين الهندوس. لكن بعد أن خفَّت حدة الاضطرابات المبدئية، بدأت صحيفة التايمز الهندية "Times of India" وغيرها من الصحف الكبرى تدَّعي أن غالبية الكشميريين يدعمون مودي بصمت – لقد كانوا خائفين للغاية من أن يعلنوا دعمهم له.. خائفين من المسلحين [الكشميريين]. أمَّا مراسلو التلفزيون القادمون حديثاً من دلهي، نصبوا كاميراتهم على الشاطئ الخلاب لبحيرة دال وردَّدوا مقولة الحكومة بما يقتضيه واجبهم.

مع تداول التقارير في الأخبار، أخبرتني الصحفية رنا أيوب عبر الهاتف أنها ستذهب إلى كشمير. رنا أيوب هي أحد أبرز مراسلي التحقيقات في الهند، وتشتهر بملاحقتها لمودي ومساعديه بلا هوادة. وكونها مسلمة من مومباي، عاشت الانقسام الطائفي في البلاد طوال حياتها. وقد شكَّت في أن مقولة الحكومة التي روتها عن كشمير كانت دعايةً تخدم مصالحها. وقالت "أظن أن القمع أسوأ مما كان عليه في أي وقت مضى". لم تكن تعرف ما قد تجده، لكنها أخبرتني "أريد التحدث إلى تلك الأصوات غير المسموعة".

---

[1] https://www.newyorker.com/magazine/2019/12/09/blood-and-soil-in-narendra-modis-india

دعتني عبر الهاتف لمقابلتها في مومباي ومحاولة الوصول إلى كشمير، على الرغم من الحظر المفروض على المراسلين الأجانب هناك خلال الحملة. عندما وصلتُ، أعطتني وشاحين وطلبت مني أن أشتري "كورتة" وهي رداء هندي تقليدي. وقالت: "أنا متأكدة تسعة وتسعين في المائة من أنك سيُقبَض عليك، لكن يجب أن تأتي على أي حال.. فقط لا تفتح فمك."

هبطت طائرتنا في مطار سريناغار بعد أسبوعين من إصدار مودي للمرسوم. كان في الصالة طاولة مكتوب عليها "تسجيل الأجانب". أسرعَتْ رنا أيوب بي من أمامها مع حرصها على بقاء رأسي منخفضاً. كان الحشد مليئاً بالشرطة والجنود، لكننا وصلنا إلى الرصيف دون أن نُشاهَد، وركبنا سيارة أجرة وانطلقنا إلى سريناغار.

حتى ونحن ننظر من سيارة متحركة، كان من الواضح أن الواقع في كشمير مختلف على نحو صارخ عن الصورة في الصحافة الهندية السائدة. كان الجنود يقفون في كل زاوية في الشوارع. منصاتٌ فيها بنادق رشاشة تحرس التقاطعات، والمتاجر مغلقة في كل الأبنية. وبصرف النظر عن الوجود العسكري، كانت الشوارع خالية من الحياة. في المسجد الرائع الذي يعود تاريخه في القرن الثامن عشر في خانكاه إي مولا، مُنِعت صلاة الجمعة. أغلقت المدارس. أوقفت خدمة الهاتف الخلوي والإنترنت.

عملاء المخابرات الهندية يراقبون لوائح الفنادق المحلية، وهذا أمر معلوم إلى حد كبير. لذا رتبنا أنا ورنا أيوب مع مصورة هندية تدعى "أفاني راي"، للإقامة مع أحد الأصدقاء. عندما وصلنا إلى هناك، أخبرنا طبيب كشميري كان في زيارة للمنزل بأن نتفحص المستشفى الرئيسي، حيث كان الشباب يعالَجون بعد أن أطلقت قوات الأمن النار عليهم. كان رجال الشرطة والجنود يستخدمون بنادق صغيرة الحجم – يطلق عليها السكان المحليون بنادق بيليه – وقد أصيب بعض الضحايا بالعمى. قال الطبيب: "اذهب إلى جناح طب العيون".

في المستشفى، وجدنا مشهداً من الفوضى مسيطر عليها بصعوبة، حيث يقوم رجال الأمن بالحراسة، وتختلط الأُسَر بالمرضى في الممرات. بينما كنت واقفاً في زاوية، محاولاً ألَّا أظهر نفسي. ركضت رنا أيوب إلى الطابق الرابع لتتحدث إلى طبيبٍ للعيون. عادت بعد بضع دقائق وأومأت إليَّ وإلى راي للحاق بها. قالت: "الجناح ثمانية". كان هناك ثلاثون من ضحايا أعيرة نارية في الداخل.

عند اقتراب ثلاثتنا، اعترضَنا رجل ذو لحية قصيرة ويرتدي زياً أنيقاً ووضع يده على كتف رنا أيوب وقال لها: "ماذا تفعلين هنا؟" نظرت أفاني راي إلي وقالت بهدوء: "اهرب" فاستدرت وانطلقت مسرعاً بين جموع الناس. أخذ الرجل الملتحي رنا أيوب وأفاني راي من ذراعيهما وقادهما بعيداً.

كان الوئام بين الهندوس والمسلمين عاملاً محورياً في الرؤية التي تبنَّاها مؤسسو الهند موهانداس غاندي وجواهر لال نهرو اللذَين أسَّسا الدولة العلمانية. وإن الهند موطن لجميع الديانات الرئيسية في العالم. يشكل المسلمون حوالي أربعة عشر في المائة من السكان. ومع استعداد الإمبراطورية البريطانية للانسحاب في عام 1947، كان المسلمون يخشون الهيمنة الهندوسية لدرجة أنهم طالبوا بدولة منفصلة، أصبحت لاحقاً باكستان. تسبب تقسيم شبه القارة الهندية بأكبر هجرة في التاريخ، حيث عبر عشرات الملايين من الهندوس والمسلمين الحدود الجديدة. وفي أعمال العنف المصاحبة للهجرة، مات حوالي مليوني شخص. وبعد ذلك، كان كل من الباكستانيون والهنود يضمرون شعوراً دائماً بالضيم فيما يتعلق بعمليات القتل وفقدان أراضي الأجداد. أصبحت كشمير – الواقعة على الحدود – موقعاً لحرب طويلة بالوكالة.

قام المسلمون الباقون في الهند بحماية أنفسهم من خلال إقامة تحالف مع حزب الكونغرس الوطني– مجموعة غاندي ونهرو التي احتكرت السياسة الوطنية لمدة خمسين عاماً. إلا أنَّ تصور المؤسسين للدولة العلمانية لم يكن متبادلاً لدى الجميع. في عام 1925، أسس كيشاف باليرام هيدْغيفار – وهو طبيب من وسط الهند – منظمة "راشتريا

سوايامسيفاك سانغ" R.S.S، وهي منظمة مكرسة لفكرة أن الهند كانت دولة هندوسية، وأن أتباع الهندوسية لهم الحق بحكم الأقليات. يعتقد أعضاء R.S.S أن الكثير من المسلمين ينحدرون من هندوس كانوا قد بدّلوا دينهم بالقوة، وبالتالي فقد كان إيمانهم مشكوك في صحته. (نفس التفكير ينطبق على المسيحيين الذين يشكلون حوالي اثنين في المائة من سكان الهند. واعتُبِرت الديانات الكبرى الأخرى – من ضمنها البوذية والسيخية – منتمية إلى الهند بشكل أكثر أصالة).

كان هيدْغيفار مقتنعاً بأن الرجال الهندوس قد أضعفتهم الهيمنة الاستعمارية، وأوصى بتدريبٍ شبه عسكري كترياق. ولإعجابه بالفاشيين الأوروبيين، أخذ عنهم ميلهم للزي الرسمي ذو اللون الخاكي، والأهم منه قناعتَهم بأن مجموعة من الرجال ممن لديهم انضباط شديد يمكنهم إحداث تحول في الأمة. وكان يظن أن غاندي ونهرو، اللذَين بذلا جهوداً لحماية الأقلية المسلمة، كانا من دُعاة سياسة التهدئة الخطرين؛ أما منظمة R.S.S فقد اختارت عدم الخوض في النضال من أجل الحرية.

في يناير 1948، بعد الاستقلال بفترة وجيزة، اغتيل غاندي على يد ناتهورام غودسي، وهو عضو سابق في منظمة R.S.S ونعرته القومية الهندوسية كانت مُعلَنة. تم حظر منظمة R.S.S مؤقتاً وتحويلها إلى هامش الحياة العامة، إلا أن الجماعة كوَّنت نفسها من جديد تدريجياً. وفي عام 1975، وسط اضطرابات مدنية وركود اقتصادي، علقت رئيسة الوزراء أنديرا غاندي عمل البرلمان وفرضت قانون الطوارئ. عارضتها منظمة R.S.S بشدة هي وحلفاءها من حزب الكونغرس. أُلقي القبض على الكثير من أعضاء المنظمة مما ساعد على إضفاء الشرعية على الجماعة عند دخولها من جديد إلى التيار السياسي السائد.

كان الأساس الأول لمنظمة R.S.S هو رجال من الطبقة العليا، ولكن من أجل أن تنمو الجماعة كان عليها توسيع باب العضوية. كان من بين المجندين من الطبقة الدنيا ولدٌ يبلغ من العمر ثماني سنوات يدعى "ناريندرا مودي" من فادناغار، وهي بلدة في ولاية غوجارات. كان مودي ينتمي إلى طبقة مجتمعية سفلى تدعى غانشي، وكان الناس من هذه الطبقة يبيعون الزيوت النباتية. كان والد مودي يدير مقهى شاي صغير بالقرب من محطة القطار، حيث ساعده ابنه الصغير. عندما كان مودي في الثالثة عشر من عمره، رتب والداه أمر زواجه من فتاة من سكان المنطقة، لكنهما تعايشا لفترة وجيزة فقط، ولم يعترف مودي علناً بالعلاقة لسنوات عديدة. سرعان ما ترك مودي الزواج بالكامل وكرس نفسه لمنظمة R.S.S. بدأ مودي بتنظيف أماكن معيشة كبار الأعضاء، لكنه مكانته ارتفعت بسرعة. في عام 1987، انتقل إلى الفرع السياسي في منظمة R.S.S: حزب بهاراتيا جاناتا، أو B.J.P.

عندما انضم مودي، كان للحزب مقعدان فقط في البرلمان. احتاج الحزب إلى قضية ما لجذب المتعاطفين، ووجد واحدة في نزاع ديني غامض. في مدينة أيوديا الشمالية كان هناك مسجد، كان اسمه "مسجد بابري"، بناه الإمبراطور المغولي بابور في عام 1528. وبعد الاستقلال وضع السكان المحليون أصنام هندوسية داخل المسجد وأصبحوا مقتنعين بأنه قد بُني مكان معبد هندوسي سابق.

في سبتمبر، 1990، أحد كبار B.J.P واسمه "لال كريشنا أدفاني" بدأ يدعو إلى هدم مسجد بابري وبناء معبد هندوسي مكانه. وليحصل على دعم لهذه الفكرة، قام بحجٍّ اسمه "رام راث ياترا" لمدة شهرين في قلب الهند. كان يسافر في سيارة أُعيد تصميمها لتبدو كعربة وكان يلقي أحياناً عدة خطب يومياً محاولاً إثارة جموع الناس بشأن ما اعتبره: "تفضيل الحكومة للمسلمين". تبع ذلك أعمال شغب طائفية، مخلِّفة مئات القتلى. اعتُقِل لال كريشنا أدفاني قبل وصوله إلى أيوديا، إلا أن أعضاء آخرين من حزب B.J.P تابعوا الأمر وجمعوا مؤيدين وتبرعات على طول الطريق. وفي السادس من ديسمبر 1992، اندفع حشدٌ يقوده أنصار منظمة R.S.S إلى مسجد بابري وبدأوا بهدمه بالفؤوس والمطارق. وبحلول الليل كان قد تم تدميره بالكامل.

أثار تدمير المسجد أعمال شغب بين الهندوس والمسلمين في جميع أنحاء البلاد، وكان أكبرها وأكثرها دموية في مومباي. في البداية، شعرت عائلة رنا أيوب بالأمان؛ كانوا محاطين بالأصدقاء. ولكن بعد عدة أيام من الفوضى، جاءهم صديق من السيخ اسمه "العم باغًا"، لإبلاغ والد رنا أيوب بأن ثلّة من رجال الحي كانوا قادمين يريدون بناته. رنا، التي كان عمرها في ذلك الوقت تسع سنوات، هربت هي وشقيقتها الكبرى "عِفَّتْ" مع العم باغًا. مكثوا مع بعض أقاربه لمدة ثلاثة أشهر، قبل أن يجتمعوا مع الأسرة في "ديونار" وهو حي للمسلمين يبعد بضعة أميال. قالت لي رنا: "شعرتُ بالعجز.. لقد كنا مثل الألعاب، ينقلنا أحدهم من مكان إلى آخر"

ديونار حيٌّ فقير، المجاري فيه منتنة وأكواخه من الصفيح. قالت رنا: "كنا نعيش في مكان صغير للغاية، قذر للغاية، في شارع مزدحم وقذرة للغاية". حدث تحول في مومباي أيضاً. عندما التحقت رنا بمدرسة قريبة أغلبُها هندوس، كان زملاؤها ينادونها: "landya"، وهو سُبابٌ يُرمَى به المسلمون. وقالت: " كانت تلك المرة الأولى التي أفكر فيها حقاً في هويتي.. كان الحي الذي نعيش فيه – أصدقاؤنا – سيقتلوننا".

بالنسبة لمنظمة R.S.S، فإن المبادرة في أيوديا أثمرت بشكل مذهل. ارتفعت نِسَب العضوية وبحلول عام 1996 أصبح حزب B.J.P أكبر حزب في البرلمان. أثناء النزاع بشأن مسجد بابري بدأ "آشيس ناندي" – وهو مفكر هندي بارز – بسلسلة من المقابلات مع أفراد منظمة R.S.S. ولكونِه طبيباً نفسياً ذا خبرة، أراد أن يدرس عقلية القوميين الهندوس الصاعدين. أحد هؤلاء الذين قابَلَهم كان ناريندرا مودي، الذي كان آنذاك موظفاً في حزب B.J.P ولا يعرفه الكثيرون. أجرى آشيس ناندي مقابلة مع مودي لعدة ساعات، ثم خرج مضطرباً. أخبرني آشيس ناندي أن مودي أظهر جميع سمات الشخصية الاستبدادية: الصلابة المتزمتة، والحياة العاطفية الضيقة، والخوف من عواطفه، وغرورٌ هائل يستر وراءه شعوراً مزعجاً بانعدام الأمن. خلال المقابلة، أسهب مودي في الكلام عن نظرية خيالية.. كيف أن الهند كانت هدفاً لمؤامرة عالمية، وأن من المرجح أن كل مسلم في البلاد مشترك فيها. قال آشيس ناندي: "كان مودي فاشّي بكل معنى الكلمة.. لا أقصد في المصطلح الإساءة. إنه صنف تشخيصي."

في 27 فبراير 2002، توقف قطار للركاب في غودرا، وهي مدينة في ولاية غوجارات. كانت قادمة من أيوديا، حيث ذهب الكثير من الركاب لزيارة الموقع الذي دُمِّر فيه مسجد بابري قبل عشر سنوات، ولتأييد بناء معبد هناك. كان ينتمي معظمهم إلى الجناح الديني في منظمة R.S.S الذي كان يسمَّى V.H.P

بينما كان القطار في المحطة، بدأ المسافرون الهندوس والمسلمون على المنصة بسلسلة من الأسئلة المزعجة والمقاطعات ومع ابتعاد القطار توقفت، ثم ازدادت وتيرة السخرية. في لحظة ما، ألقى أحدهم النار على إحدى السيارات – قد يكون بائعاً مسلماً لديه موقِد. انتشر اللهب، وكان الركاب محاصرين في الداخل. عندما فُتِح الباب أخيراً، أشعَلَ اندفاع الأكسجين كرة نارية. اختنق حوالي ثمانية وخمسين شخصاً أو احترقوا حتى الموت. عندما انتشر خبر الكارثة، سمحت حكومة الولاية لأعضاء حزب V.H.P بتسيير موكب للجثث المحترقة في أحمد أباد – أكبر مدن الولاية. بدأ الهندوس الذين أغضبهم ما رأوه في الموكب بمهاجمة المسلمين في جميع أنحاء الولاية.

تجولت حشود من الهندوس في الشوارع وكانوا يرددون فيها: "انتقموا واذبحوا المسلمين!". وأفاد شهود عيان أن مثيري الشغب بقروا بطون نساء حوامل وقتلوا أطفالهن، واغتصب آخرون نساءً وفتيات بشكل جماعي. وفي حالة واحدة على الأقل، أُجبر صبي مسلم على شرب الكيروسين وابتلاع عود ثقاب مشتعل. عُرِض إحسان جعفري – وهو سياسي كبير في حزب الكونغرس – عارياً ثم قُطِّع جسده وحُرِق.

كان الجانب الأكثر شرَّاً من أعمال الشغب هو أن التخطيط لها وتوجيهها كان يبدو إلى حد كبير أن منظمة R.S.S هي التي قامت به. وانتشرت فرق من الرجال – مسلحين بالهراوات والبنادق والسيوف – عبر الجيوب المسلمة في الولاية، وغالباً ما كانوا يحملون قوائم للناخبين وغيرها من الوثائق الرسمية التي قادتهم إلى منازل المسلمين ومحلاتهم.

رئيس وزراء حكومة غوجارات كان وقتها ناريندرا مودي، الذي عُيِّن في هذا المنصب قبل ذلك بخمسة أشهر. مع ازدياد وتيرة أعمال الشغب تخفَّى مودي.. استدعى الجيشَ الهندي لكنه أبقى على الجنود في ثكناتهم بينما خرج العنف عن السيطرة. وحسبما ذكرت العديد من مجموعات حقوق الإنسان أن الكثير من مناطق غوجارات، لم تقف الشرطة فيها موقف المتفرج فحسب، بل شاركت في العنف.

عندما بدأت أعمال الشغب كان "راهول شارما" كبير ضباط الشرطة المسؤول عن بافناغار، وهي منطقة يبلغ عدد سكانها المسلمين أكثر من سبعين ألفاً. قال راهول شارما في شهادة أقسم عليها في وقت لاحق أنه لم يتلقَ أي توجيه من رؤسائه بشأن كيفية السيطرة على أعمال الشغب. وفي اليوم الرابع تجمع حشد من الآلاف حول مدرسة أكوادا، وهي مدرسة إسلامية كان فيها حوالي أربعمائة طفل بداخلها. وكان المهاجمون يلوحون بالسيوف والمشاعل. قال راهول شارما: "لقد كانوا يتصرفون بطريقة منظمة.. لقد كانوا سيقتلون الأطفال". أمر راهول شارما رجاله باستخدام القوة المميتة لمنع وقوع أي هجوم؛ وعندما لم يكن لطلقات التحذير أي أثر، أطلقوا النار فقتلوا رجلين وأصابوا العديد من الآخرين. تفرَّق الحشد وصحب راهول شارما الأطفال إلى بر الأمان.

مع ذلك، استمر العنف دون رادع في كل منطقةٍ أخرى تقريباً. أما راهول شارما.. بدلاً من الاحتفال به كبطل، نُقِلَ إلى خارج الحي إلى وظيفة مكتبية لإشغاله. أما لال كريشنا أدفاني – المؤيد لهدم المسجد في أيوديا، والذي ارتقى إلى منصب وزير الداخلية في الهند – اتصل براهول شارما وأشار له أنه ترك الكثير من الهندوس يموتون.

استمرت أعمال الشغب لمدة ثلاثة أشهر تقريباً وعندما انتهت، مات ما يقرب من ألفي شخص وهُجِّر قرابة المائة وخمسين ألفاً من الناس من منازلهم. غُيِّرت طبيعة الجغرافيا العرقية في ولاية غوجارات بحشر معظم المسلمين إلى الأحياء الفقيرة. أنشئ أحد الأحياء الفقيرة داخل مكَبّ أحمد آباد، وهو مشهد شاسع من مياه المجاري والقمامة التي ارتفعت لمئات الأقدام في الهواء. (هذا الحي الفقير الذي يطلق عليه سكانه اسم "قرية المواطنين" ما يزال موطنا لآلاف الأشخاص الذين يعيشون في أكواخ ويتنفسون الهواء الضار، وعندما تأتي الرياح الموسمية، فإن القذارة من القمامة تغمر الشوارع والأكواخ.)

عندما اندلعت أعمال الشغب، قررت رنا أيوب المساعدة – وكانت في ذلك الوقت في التاسعة عشرة. وبعد أن أخبرت والدتها أنها ستذهب في رحلة مع صديقة لها في جبال الهيمالايا، ركبت في قطارٍ إلى مدينة فادودارا في غوجارات. نظراً لأن الاضطرابات كانت ما تزال مشتعلة، فقد تنكَّرت بزيٍّ هندوسي: بندي أحمر قاني ونقطة حمراء تضعها نساء الهندوس على جباههن.

أمضت رنا ثلاثة أسابيع في المخيمات الإغاثية، حيث ساعدت ضحايا الاغتصاب في تقديم بلاغات للشرطة. كانت المخيمات محاطة بمراحيض مفتوحة، وكانت رائحة المجاري قوية جداً. والأطفال يستلقون والذباب عليهم. في بعض الأحيان، كانت عصابات مسلحة بالسيوف وزجاجات المولوتوف تبحث عن المسلمين. وخلال عملية هجوم واحدة، اختبأت رنا أيوب في أحد المنازل وأمعنت النظر إلى حشد فيه حوالي ستون رجلاً مندفعون إلى الخارج. قالت: "كان قلبي يخفق بشدة.. غوجارات جعلتني أدرك أن ما حدث في مومباي لم يكن حالة استثنائية".

بعد أعمال الشغب، لم تفعل حكومة مودي شيئاً تقريباً لتوفير احتياجات عشرات الآلاف من المسلمين الذين أُجبروا على ترك منازلهم؛ المساعدات كلها تقريباً كانت تأتي من المتطوعين. وردّاً على سؤالٍ بهذا الشأن، قال مودي: "المخيمات الإغاثية هي في الواقع مصانع لإنتاج الأطفال. يجب أن يُلقَّن أولئك الذين يستمرون بالتكاثر درساً". وعلى الرغم من أن بعض مثيري الشغب من الهندوس قد اعتُقِلوا، فقد أُدين بضع عشرات فقط في النهاية. "مايا كودناني" – وزيرة تنمي لحزب B.J.P – كانت المسؤولة الوحيدة التي قُرِّر أن تعاقب بشكل كبير.. أُدينت بالقتل والشروع بالقتل والتآمر. وعندما وصلت حكومة مودي في وقت لاحق إلى السلطة في دلهي، بُرِّأت مايا كودناني من جميع التهم.

في الأشهر التالية، كانت هناك مؤشرات على تورط كبير للحكومة في الذي حدث. وفقاً لتحقيقات مستقلة، تحركت عصابات الهندوس بحزم متَّبعة قادةً كان يظهر أنهم تلقوا تعليمات واضحة. خَلُص التحقيق غير الحكومي الذي شارك فيه قضاةٌ سابقون في المحكمة العليا ومسؤولٌ كبير في الشرطة إلى أن "الحكومة نشرت هذه التعليمات بشكل سافر، وفي معظم الحالات – ما عدا بعض الاستثناءات القليلة جداً – أنفذتها الشرطة والخدمة الإدارية الهندية بشكل منظَّم."

خلال أعمال العنف، سافر مسؤول فيدرالي كبير يدعى هارش ماندر إلى ولاية غوجارات وأصيب بالذهول من الإهمال الحكومي. وعندما لاحظ أن العديد من زملائه كانوا متواطئين في حمَّام الدم، ترك العمل في وظيفته مبكراً واتجه للعمل في المخيمات المؤقتة التي كان يتجمَّع فيها اللاجئون المسلمون. وكرس الكثير مما تبقى من حياته لتذكير عامة الناس بما حدث ومن كان المسؤول. قال لي هارش ماندر: "لا يحدث أي شغب طائفي في الهند ما لم ترغب الحكومة في ذلك.. لقد كانت هذه مجزرة برعاية الدولة".

ادعى بعض المسؤولين أن قرار تشجيع أعمال الشغب جاء من مودي نفسه. هارين بانديا – أحد منافسي مودي ووزير في مجلس الوزراء – أدلى بشهادة تحت القَسَم بشأن أعمال الشغب، وتحدث أيضاً إلى المجلة الأسبوعية آوتلوك "Outlook". وقال إنه حضر اجتماعاً في بيت مودي في الليلة التي بدأت فيها الاضطرابات، وفي الاجتماع أَمَرَ مودي كبار مسؤولي الشرطة بـ "السماح للناس بالتنفيس عن إحباطهم وعدم اعتراض ردود أفعال الهندوس". وذَكَرَ مسؤولٌ في الشرطة يدعى "سانجيف بهات" أن مودي – في اجتماع آخر في تلك الليلة – قال إنه يأمل أن "يتعلم المسلمون درساً لضمان عدم تكرار مثل هذه الحوادث".

ولكن لم تكن هناك إرادة سياسية كبيرة لمتابعة الأدلة ضد مودي، ولم يستمر حضور متَّهِميه أمام أنظار العامَّة لفترة طويلة. فبعد أن وجَّه "سانجيف بهات" اتهامه، اتُّهِم بقتل أحد المشتبه بهم في مخفر الشرطة – وهي قضية ظلت خامدة لأكثر من عقدين – وحُكم عليه بالسجن مدى الحياة. وفي عام 2003، عُثِر على الوزير هارين بانديا ميتاً في سيارته في أحمد آباد. لم تترك زوجته مجالاً كبيراً للشك فيمن اعتقدت أنه وراء ذلك. قالت: "لقد كان اغتيال زوجي جريمة قتلٍ سياسية".

أما مودي، فقد كان لأعمال الشغب تأثيرٌ ملحوظ عليه. مُنِع من السفر إلى الولايات المتحدة والمملكة المتحدة لما يقرب من عقد من الزمان، وتجنَّبه كبار قادة حزبه. (في عام 2004، تم التصويت على عزل رئيس الوزراء "آتال بيهاري فاجبايي" المنتمي لحزب B.J.P. فأَلقى باللوم على مودي في تلك الخسارة).

بالرغم من ذلك، عَلَت مكانته في ولاية غوجارات. وبدلاً من السعي لتسوية الخلاف، قاد مودي مسيرة جريئة عبر الولاية اعتزازاً بالهندوسية، والتي قوبلت بتأييد كبير. غالباً ما تحدث مودي بلغة لا تكاد تكون مشفرة أشارت إلى أتباعه بأنه يشاطرهم تعصبهم. في أحد الخطابات خلال المسيرة، ألمح أن مسلمي الدولة كانوا عائقاً يجب التغلب عليه فقال: "إذا رفعنا من احترام الذات والروح المعنوية لخمسين مليون من الغوجاراتيين، فإن مخططات من يُدعون علي وجمال [يقصد المسلمين] لن تكون قادرة على إلحاق الأذى بنا" فهتف الحشدُ لذلك. في شهر ديسمبر في ذلك العام، بعد حملة ألقى فيها عدة خطب تحريضية ضد المسلمين، قاد حزب B.J.P إلى فوز انتخابي ضخم في ولاية غوجارات.

وفي المناطق الأخرى في الهند كانت حظوظ حزب B.J.P تسوء، ونتيجةً لذلك تمكنت عصبة مودي المتزمتة من الاستيلاء على قيادة الحزب. كما بدأ مودي ببناء سمعة وطنية كزعيم مؤيد للأعمال التجارية ترأَّس عملية تنمية اقتصادية سريعة. قالت لي رنا أيوب: "كان حزب B.J.P يحتضر وكانت الفرصة الوحيدة التي أتيحت له للوصول إلى السلطة هي مودي، لأنه كان لديه كل أولئك الأتباع – كل كبار رجال الأعمال – وهكذا نُسِيت جميع أعمال الشغب".

في النهاية، أعلن فريق تحقيق تابع للمحكمة العليا أنه لا يوجد دليل كافٍ لتوجيه الاتهام إلى مودي فيما يتعلق بأعمال الشغب، وهي نتيجة رفضتها جماعات حقوق الإنسان باعتبارها تخضع لدوافع سياسية. حاول عدد قليل من مؤيدي

القضية إبقاءها حية. ففي عام 2007، عندما ظهر مودي على شبكة CNN–IBN الهندية، سأله الصحفي كاران ثابار: "لماذا لا تستطيع أن تقول إنك نادم على عمليات القتل؟"
أجاب مودي وقد تصلبت تقاسيم وجهه: "ما يجب عليَّ قوله كنت قد قلته آنذاك". وعندما أصرَّ الصحفي كاران ثابار باستمرار.. انفعل مودي وقال: " عليَّ أن أستريح.. أحتاج بعض الماء". ثم أنتزع الميكروفون ومضى مبتعداً.
وفي عام 2013، عندما سأله مراسل آخر إن كان يشعر بالأسى لوفاة الكثير من المسلمين.. قال إنه كان متفرجاً عاجزاً وقال: "إن كان شخص ما يقود سيارة ونحن نجلس في الخلف – حتى في ذلك الحين، إن أتى جرو تحت العجلة، فهل سيكون ذلك مؤلماً؟ بالطبع سيكون كذلك."
يرى العديد من المراقبين أن نجاح مودي يعود لرغبته في اللعب على وتر مشاعر الاستياء العميقة، التي كان يُعدُّ الحديث عنها في الأوساط الراقية لعقود بمثابة إهانة. على الرغم من أن مسلمي الهند كانوا عادة أكثر فقراً من المواطنين الآخرين، إلا أن الكثير من الهندوس شعروا بأن الحكومة المركزية كانت تظلمهم بتفضيلها لأولئك المسلمين عليهم. كان الهندوس ينتقدون بشكل غير مُعلن إنجاب المسلمين للكثير من الأطفال ودعمهم للإرهاب. جعلت تجربة غاندي ونهرو المسلمين يشعرون بالأمان بشكل غير عادي في الهند خارج كشمير.. نتج عن ذلك بشكل جزئي أن كان هناك تطرف قليل جداً؛ ومع ذلك، كان يرى الكثير من الهندوس أنهم يشكلون تهديداً دائماً. وقد أخبرني "نيرجاري سينها"، وهو عالم في غوجارات كان يبحث في قضية أعمال الشغب: "لقد أصبح مودي بطلاً بنظر جميع الهندوس في الهند.. هذا ما يقوله لي الناس في الحفلات وفي دعوات العشاء. الناس يشعرون بالفعل أن المسلمين إرهابيون – والفضل يعود لمودي في جعل المسلمين أخيراً تحت السيطرة ".

بعد أن تخرجت رنا أيوب من كلية صوفيا في مومباي قسم الأدب الإنجليزي، تنقَّلت بين مواقع الإنترنت والقنوات التلفزيونية قبل أن تستقر في مجلة تسمى "تيهيلكا" Tehelka. ولأن هذه المجلة تنشر باللغة الإنجليزية، كان تداولها قليلاً ولكن سمعتها كانت عظيمة فيما يتعلق بالتحقيقات الصعبة. باشرت رنا أيوب العمل، وكتبت عن عمليات القتل التي ارتكبتها الشرطة وعن تجارة المهرَّبات التي أدارها مسؤولون في مومباي.
في عام 2010، في سلسلة من المقالات الرئيسية لمجلة تيهيلكا، ربطت رنا أيوب أقرب مستشاري مودي واسمه "آمِت شاه" بجريمة مثيرة. كانت عائلة آمِت شاه من الطبقة العليا، وكان قد درس الكيمياء الحيوية لكنه امتاز بخبرته في التكتيكات السياسية. ولمنصبه كرئيس لرابطة غوجارات للشطرنج في وقت ما، ساعد مودي مرتين في التخطيط لانتخابه كأفضل مسؤول في غوجارات. وبعد ذلك أصبح وزيراً للشؤون الداخلية.
كانت رنا أيوب تبحث في قضية كانت قد بدأت قبل ذلك بخمس سنوات، عندما أعلنت الشرطة في غوجارات أنها قتلت رمياً بالرصاص إرهابياً مشتبهاً به أرسلته باكستان لاغتيال مودي. لكن الإعلان أثار الشك لدى الأوساط السياسية والصحفية. كانت هناك شائعات تنتشر بأن الشرطة قتلت مجرمين، ثم تظاهروا أنهم قتلوا رجال اغتيالات مسلمين أحبِط مسعاهم بشكل بطولي قبل وصولهم إلى مودي. الهنود المدركون لحقيقة الأمر سخروا من مزاعم الشرطة لكونها "مواجهات وهمية [مع رجال عصابات أو إرهابيين]"، لكنهم – من ضمن الغوجاراتيين الذين شعروا بالقلق من أعمال الشغب – ساعدوا في تحسين سمعة مودي كمدافع عن الهندوس.
اتضح أن القاتل المزعوم، يدعى "شوراب الدين شيخ"، لم يكن له تاريخ في النضال الإسلامي. قبل مضي الكثير من الوقت أثبت المحققون الفيدراليون أنه قد قُتِل على أيدي الشرطة. كان هناك شهود، بمن فيهم زوجة شوراب الدين شيخ وشريكه في الإجرام. لكن بعد يومين من قتله قُتلت زوجته وحُرقت جثتها؛ وقُتِل شريكه في مخفر الشرطة بعدها بعام.

لم تظن رنا أيوب أن المسؤول الأكبر عن ذلك هم الشرطة. قالت لي: "لم أنظر أبداً إلى الاعتقالات التي حصلت، ولا إلى الأشخاص الذين أطلقوا النار.. إنما بحثت عن الرؤوس الكبار في الجريمة". ذَكَرَ أحد المصادر – وهو ضابط شرطة – أن آمِت شاه كان متورطاً. التقت رنا أيوب بالضابط في المرة الأولى في منزل منعزل في الريف. قالت لي: "لاحَظَ الضابط أن يديَّ كانتا ترتجفان فقال: إن كنت ماضية في هذا الأمر فعليكِ التوقف عن الارتجاف". وفي المرة التالية التي التقيا فيها – وكانت في مقبرة في الساعة الثالثة صباحاً، كانت رنا أيوب مرتدية برقعاً – أعطاها قرصاً مضغوطاً مخفياً في باقة زهور. حوى القرص تسجيلات لمكالمات آمِت شاه الهاتفية لست سنوات، بما في ذلك أوقات مكالماته ومواقعها.

أوضحت رنا أيوب عن طريق السجلات أن آمِت شاه والضباط الثلاثة المشتبه بهم في قتل شريك شوراب الدين شيخ كانت اتصالاتهم مكثفة، قبل وبعد القتل. كما قَدَّمت في تقاريرها شرحاً لدوافع آمِت شاه: أخبرها مسؤول في الشرطة أن المجرمين المقتولين "كانوا يعرفون شيئاً كان يمكن أن يدين الوزير".

لم تكن رنا أيوب أول صحفية تفضح التجاوزات الحكومية في القضية، لكن الأدلة حول آمِت شاه كانت متفجرة. طلب منها عملاء فيدراليون نسخة من سجلات مكالمات آمِت شاه الهاتفية فرفضت إعطاءهم إياها. وفي غضون أسابيع، اعتُقِل آمِت شاه بتهمة القتل والابتزاز. اتهم بتورطه في نفس الأعمال غير المشروعة التي مارسها شوراب الدين شيخ. (أنكر متحدثٌ باسم آمِت شاه تواطؤه قائلاً "إن آمِت شاه أُلبِس الجريمة المذكورة لاعتبارات سياسية"). وفي النهاية، اتَّهمت الشرطة الفيدرالية ثمانية وثلاثين شخصاً آخرين، بمن فيهم كبير مسؤولي الشرطة في غوجارات، وزير الداخلية السابق لولاية راجاستان، وأكثر من عشرين ضابطاً يشتبه في تورطهم في جرائم القتل.

في الصباح الذي أُلقي القبض فيه على آمِت شاه، استيقظت رنا أيوب لتجد أن تقريرها تصدَّر عناوين الأخبار. قرأت مذيعة تلفزيونية مشهورة إحدى فقرات التقرير كاملة على الهواء فقالت: "كنت مجرد فتاة مسلمة في السادسة والعشرين من عمري. شعرت أن الناس سيرَون أخيراً ما يمكنني القيام به." مقالاتها مع مقالات أخرى تسببت في إجراء سلسلة من التحقيقات الرسمية بشأن شرطة غوجارات، الذين اشتُبِه بقتلهم لأكثر من عشرين شخصاً في "مواجهات مزيفة [مع مسلحين أو عصابات]". ولكن حتى آمِت شاه لم يكن الرأس الكبير باعتقاد رنا أيوب. أخبرها مصدر معلوماتها أن الشرطة كانت تحت ضغط شديد لإيقاف التحقيق وإخفاء السجلات عن أنظار المحققين الفيدراليين – ملمحاً أن شخصاً قوياً كان يحاول إخماد القضية. كان عنوان إحدى مقالاتها: "لماذا إذن ناريندرا مودي يحمي آمِت شاه؟"

على الرغم من الأدلة التي تراكمت بشأن مودي، إلا أنه أصبح أقوى. ذُكِر على نحو متزايد كمرشح للمكتب الوطني. في عام 2007، أثناء ترشحه للانتخابات كرئيس للوزراء، سخر مودي من أعضاء حزب الكونغرس لملاحقتهم إياه. وقال أمام جمع من المؤيدين: "يقول أعضاء حزب الكونغرس إن مودي يتورط في "مواجهات" – قائلين إن مودي قتل شوراب الدين. أخبروني.. ماذا عليَّ أن أفعل بشوراب الدين؟"

هتف جمع المؤيدين: "اقتله! اقتله!"

بعد أسابيع قليلة من اعتقال آمِت شاه، خطرت لرنا أيوب فكرة لمقال جديد: "إن كان بمقدوري ملاحقة آمِت شاه، لم لا أستطيع ملاحقة مودي؟" وأخبرت محرريها في تيهيلكا أنها تشتبه في ارتكاب مودي لجرائم أخطر مما ورد ضدَّه في السابق. رأت أنها إن ذهبت سراً يمكنها أن تتسلل إلى دائرته الضيقة ومعرفة الحقيقة.

في الولايات المتحدة، من القواعد الأساسية للصحافة ألا يكذب الصحفيون بشأن هويتهم.. فالعمليات السرية مقيَّدة بقواعد المهنة. غير أن هذه الممارسة أكثر شيوعاً في الهند، إن كانت مَثاراً للخلاف في الأصل. في عام 2000، أرسلت مجلة تيهيلكا لاعباً سابقاً في لعبة الكريكيت، كان يحمل كاميرا مخفية، لفضح التلاعب في نتائج المباريات والرشوة

الشائعين في هذه الرياضة. في وقت لاحق من ذلك العام، صحفيان كانا يتظاهران أنهما مندوبا شركة وهمية لبيع كاميرات الأشعة تحت الحمراء لوزارة الدفاع. وافق 36 من المسؤولين على تلقي الرشاوى.. واستقال وزير الدفاع.
أخبرني تارون تيجبال - محرر تيهيلكا - أنه لم يأذن بالتحايل إلا عندما ظهر ألّا سبيل آخر للحصول على الخبر. وقال: في هذه الحالة "مودي وآمِت شاه لا يمكن مسُّهما. ولن تظهر الحقيقة أبداً" وقال لرنا أيوب أن تمضي في مسيرها.
عندما بدأت رنا بإعداد التقارير ابتكرت تمويهاً متقناً صُمّم ليروق لتفاهة المؤسسة السياسية في غوجارات. وقالت: "الهنود يعانون من ضعف تجاه الاعتراف بهم في أمريكا". "فكرة أن يكونوا مشهورين في الولايات المتحدة – كانت عندهم لا تقاوَم". غيرت اسمها إلى "مايتيلي تياغي"، طالبة أمريكية هندية في المعهد السينمائي الأمريكي في لوس أنجلوس، تزور الهند لتصوير فيلم وثائقي. اختلقت قصةً عن أسرتها قائلة إن والدها كان بروفيسوراً في اللغة السنسكريتية ومحباً للأفكار القومية الهندوسية. تدربت رنا على لهجة أمريكية، ولكي تبدو قصتها حقيقية أكثر استعانت بمساعد فرنسي، سمَّته مايك. والداها فقط كانا يعرفان ما كانت تفعله وبقيت على اتصال معهما على هاتف منفصل.
في خريف عام 2010، استأجرت رنا غرفة صغيرة في أحمد آباد. ولمدة ثمانية أشهر، كانت تشق طريقها إلى النخبة من سكان المنطقة، مدَّعية أن فيلمها سيركز على الذين ازدهروا في غوجارات في عهد مودي. قالت لي "أكبر دعم لمودي يأتي من الغوجاراتيين الأمريكيين. قلت لهم: 'أريد أن ألتقي بأكثر الناس نفوذاً ممن يمكنهم أن يرووا لي قصة السر وراء ما فعله السيد مودي في السنوات الخمس عشرة الماضية' ".
في البداية، لم تظهر رنا أيوب ومايك إلا في المناسبات الاجتماعية غير السياسية لكي يتعود السكان على رؤيتهم في المنطقة. عندما اقتربت أكثر بدأت تضع كاميرات وميكروفونات خفية – في ساعتها وفي لباسها وفي هاتفها. كانت رنا أيوب موضع ترحيب في كل مكان تقريباً. وقالت إنها استطاعت أن تلتقط تسجيلات فاضحة لكبار المسؤولين الغوجاراتيين، اتَّهَم بعضُهم مودي وآمِت شاه بشكل مباشر بارتكاب مخالفات. حتى مودي وافق على رؤيتها والحديث معها لوقت قصير في مكتبه، حيث أعطاها الموظفون نسخاً فيها سيرته لتقرأها. أراها مودي نسخاً من كتب باراك أوباما. ذكرت رنا ما قاله لها مودي: "قال لي: 'يا مايتيلي، انظري إلى هذا.. أريد أن أكون مثله يوماً ما' ". لقد صُعقَتْ من مكره. قالت: "اعتقدتُ أن مودي إما سيكون رئيساً للوزراء أو أنه سوف يُسجَن".
أخذت رنا أيوب ما توصلت إليه من نتائج عائدةً إلى المحررين العاملين معها. ولكن بعد مراجعة النصوص، قرر المحرر تارون تيجبال عدم نشر التقرير. كانت المحادثات المسجلة في الغالب لمسؤولين يَذكُرون تورط مسؤولين آخرين – غالباً ما كانا مودي وآمِت شاه. أخبرني تارون تيجبال أن ما أراده هو أن يعترف أشخاصٌ بجرائمهم. قال لي: "التقاليد الأساسية لعملية الاستدراج هي أنه لا يكون جيداً إن لم يتهم الشخص نفسه. إن قُلت لي: ‘لقد أجريتُ محادثة مع شخص ما، وأخبَرَني أن توم، ودِكْ، وهاري كذا وكذا، وأن ذاك الشخص موقنٌ أن توم يأخذ أموالاً من فلان، وأن هاري فَعَلَ كذا وكذا مع فلان، فإن هذا لا يعني شيئاً. إنها مجرد ثرثرة رخيصة’ ".
كانت رنا أيوب مقتنعةً بأن تارون تيجبال قد رضخ لضغوط من حزب B.J.P. قالت لي: "لقد رضخ، كنتُ داخل الحلقة المقرَّبة لمودي وآمِت شاه.. أقرب ما يمكن." لكن تارون تيجبال أنكر هذا، ووقف محررون آخرون إلى جانبه.
ولأن رنا أيوب كانت عازمة على نشر القصة كتبت مسودة كتاب ووزعته على دور النشر والصحف والمجلات الانجليزية. كلهم رفضوا عرضها. قال البعض إن الكتاب كان متحيزاً جداً وقال معظمهم إن طُرُق الحصول على المعلومات يمكن أن تعرِّضهم لدعاوى قضائية. أخبرني عددٌ من المحررين سرّاً بأنهم يعتقدون أن عمل رنا أيوب كان فاضحاً، لكن كان من المستحيل نشره. أخبرني كريشنا براساد – الذي كان آنذاك رئيس تحرير مجلة "Outlook": "أردنا أن نقتطف من الكتاب لغلاف مجلتنا، لكن انتشر الخبر وبدأت المكالمات الهاتفية. ببساطة لم نتمكن من القيام بذلك."

بحلول عام 2012، أصبح مودي القائد الأكثر شهرة في الهند من حزب B.J.P، وكان يبدو من المرجح أن يترشح لرئاسة الوزراء. قالت رنا أيوب: "رأى الجميع النذير بالخطر القادم. كان مودي سيفوز، ولم يرغب أحد في إبعاده". استمرت رنا أيوب محاوِلةً العثور على ناشر، لكن لم يُنشَر شيء. أخبرتني أنها أصيبت بحالة ذعر شديد، واعتمدت على مضادات الاكتئاب للسنوات الأربع التالية. في عام 2013، اتُّهِم تارون تيجبال – محرر تيهيلكا – باعتداءٍ جنسي وقضى سبعة أشهر في السجن قبل إطلاق سراحه بكفالة. (يصرُّ على براءته، والقضية ما تزال جارية). انهارت المجلة بالكامل. قالت رنا: "اعتقدت أنها كانت النهاية".

عندما بدأ مودي ترشحه لمنصب رئيس الوزراء في خريف عام 2013، لم يروِّج لنفسه كقائد قومي صليبي بل كرجل إدارة خبير وصاحب رؤيةٍ كان قد ترأس ازدهاراً اقتصادياً في غوجارات. كان شعار حملته: "الأيام الجميلة قادمة". أظهرت نظرة فاحصة إلى البيانات أن اقتصاد ولاية غوجارات لم ينمُ تحت إدارته بوتيرة أسرع مقارنة بمن سبقه – كان النمو المتسارع "حكاية منسوجة بشكل خيالي" كما قال براساد – المحرر السابق. ومع ذلك، فإن العديد من الشركات الكبرى في الهند أغرقت حملته بالتبرعات.

كان مما ساعد مودي التصور الذي انتشر بشكل كاسح لدى العامَّة بأن حزب الكونغرس، الذي كان في السلطة طوال نصف القرن الماضي، قد أصبح متعجرفاً وفاسداً. كان تقاعسهم متجسداً بعائلة غاندي التي سيطر أعضاؤها على الحزب ولكنهم بدَوا خجولين وبعيدين عن الناس. راهول غاندي – رئيس الحزب (وحفيد نهرو) – أطلق عليه الإعلام الهندي لقب "الأمير المتردد".

وفي المقابل كان مودي وفريقه منضبطين وذوي تركيز واستجابة. قال لي معلق سياسي هندي قابل جماعة راهول غاندي ومودي: "جماعة راهول غاندي يجعلون رؤساء الوزارات – الذين سافروا عبر البلاد لرؤيتهم – ينتظرونهم لأيام. إنهم لم يكترثوا لهم". أما جماعة مودي، فقد كانوا يُدخلونهم مباشرة". في حين أن قادة الكونغرس كانوا يتصرفون غالباً كما لو أن من حقهم أن يَحكُموا، فقد قدَّم قادة حزب B.J.P أنفسهم على أنهم نُسَّاكٌ وأصحاب التزام وليسوا عرضة للفساد. مودي – الذي يُقال إنه يمارس عدة ساعات من اليوغا كل يوم – كان يرتدي عادةً ثياباً بسيطة، وكان أفراد عائلته يعملون في وظائف متواضعة وكانوا غائبين بشكل واضح عن المناصب الحكومية العليا. ومهما كانت الادعاءات الأخرى التي أحاطت به، فلا يمكن اتهامه بالجشع.

فاز حزب B.J.P بالنسبة الأكبر من مجموع الأصوات، ووُضع مودي على رأس الائتلاف الحاكم. فاجأ الكثير من الهنود بحكم موقعه كرئيس للوزراء عندما تحدى الناس أن يواجهوا المشاكل التي لم تُعالَج. إحداها كانت التغوط في الأماكن العامة، وهو سبب رئيسي للمرض في جميع أنحاء الهند. أعلن في خطاب مبكر ألقاه في دلهي عن برنامج على مستوى البلاد لبناء مراحيض عامة في كل مدرسة، وهو تحسن أرضى به الكثير من الهنود. كما عالج مودي سلسلة من عمليات الاغتصاب الجماعي التي كانت منتشرة بكثرة متحدثاً بلغة حديثة قائلاً: "الآباء يسألون بناتهم مئات الأسئلة، لكن هل تجرَّأ أيٌّ منهم أن يسأل أبنائه إلى أين يذهبون؟"

هذا الخطاب رسم المسار العام لمودي في رئاسة الوزراء، أو على الأقل في جزء منها. عندما كان شاباً، نَذَرَ أن يبقى عازباً، ولم يبدِ أي إشارة علنية إلى أنه أخَلَّ بهذا النذر. ولعدم وجود أعباء عائلية، كان يعمل باستمرار. قال لي المعلق السياسي الهندي: "عندما يكون لديك هذا النوع من القوة، هذا النوع من الشغف، فأنت لست بحاجة إلى الرومانسية". ركز مودي في غوجارات على مشاريع كبيرة، واكتساب ودِّ صانعي السيارات وإيصال الكهرباء إلى القرى. وكرئيس للوزراء.. أحدث إصلاحاً شاملاً لقوانين الإفلاس وبدأ بحملة لبناء الطرق بمليارات الدولارات.

نجحت جهود مودي لتغيير صورته في الغرب أيضاً. رحَّب كُتَّاب الأعمدة في الصحف في الولايات المتحدة بتشديده على مسألة الأسواق والكفاءة. بالإضافة إلى ذلك، زار مودي شبكة واسعة من الأمريكيين من أصل هندي ممن رحبوا بنجاحه

في جلبه للهند إلى الساحة العالمية. أسقطت إدارة أوباما بهدوء حظر التأشيرة المفروض عليه. عندما التقى مودي بأوباما – ولم يكن قد مضى وقت طويل على توليه منصبه وقتها – زار الاثنان النصب التذكاري لمارتن لوثر كينغ جونيور، وهو رجل قال مودي إنه معجب به. كان مودي أثناء إقامته في اجتماع عشاء مع أوباما، لكنه وضع طهاة البيت الأبيض في معضلة: لقد كان صائماً لـ 'نافاراتري'، وهو مهرجان هندوسي.. شرب مودي الماء فقط في الاجتماع.

أخبرني المعلق السياسي الهندي، الذي التقى بمودي خلال فترة ولايته الأولى، أنه شخصياً كان حادّاً ومحباً للاستطلاع إلا أنه لم يكن مضطرباً؛ كان يمزح بشأن القرود التي كانت تفسد حديقته، وناقش بسعادة خفايا المشاريع التي كانت تشغل اهامه. أهمها المياه: كانت المياه الجوفية في الهند تتدهور بسرعة (انخفضت بنسبة واحد وستين في المائة خلال العقد الماضي)، وكان مودي يحاول الاستعداد لمستقبل يمكن أن تتعرض البلاد فيه للجفاف. عرض أيضاً خلال الاجتماع قائمة مفصلة من الدول التي كانت في حاجة إلى مختلف المتخصصين – المحامين والمهندسين والأطباء – من النوع الذي يمكن أن توفره الهند، نظراً لضخامة عدد الخريجين فيها. قال المعلق: "إنه ذكي، شديد التركيز.. ومتشدد بعض الشيء"

بعد تولي مودي للسلطة بفترة ليست بطويلة خمدت قضية شوراب الدين شيخ التي تورط فيها صديقه القديم آمِت شاه. بحلول عام 2014، كان آمِت شاه قد توقف أساساً عن حضور جلسات الاستماع. عندما أمر القاضي آمِت شاه بالحضور، أُبعِد عن القضية في تحدٍ للمحكمة العليا.

كما اشتكى القاضي الجديد بريجوبال لويا من عدم حضور آمِت شاه للمثول أمام المحكمة. وقال لعائلته وأصدقائه إنه يتعرض "لضغوط كبيرة" لكي يرفض الدعوى، وقال لهم إن رئيس المحكمة العليا في بومباي قد عرض عليه ستة عشر مليون دولار لإفشال القضية. (لم يتسن الوصول إلى رئيس المحكمة العليا للحصول منه على تعليق). مات بريجوبال لويا بعد فترة ليست بطويلة في ظروف غامضة. قال تقرير الطبيب الشرعي إنه تعرض لنوبة قلبية، لكن بحسب 'كارافان' وهي مجلة إخبارية هندية رائدة.. التفاصيل الواردة في التقرير كان يبدو أنها قد زُوِّرت. الترتيبات اللازمة لإعادة جثمان بريجوبال لويا لم يقم بها مسؤولون حكوميون بل قام بها أحد أعضاء منظمة R.S.S. وصل جثمانه مضمَّخاً بالدم. طلبت عائلة بريجوبال لويا إجراء تحقيق رسمي في سبب وفاته لكنها لم تُحصل على ذلك.

أُحيلت قضية آمِت شاه إلى قاضٍ ثالث وهو إم بي غوسافي الذي أسقط جميع التهم بعد أقل من شهر قائلاً إنه لم يجد "سبباً كافياً للاستمرار " بالقضية. ولم تثمر الجهود اللاحقة لمحاسبة أي شخص على وفاة شوراب الدين شيخ. ومع اقتراب محاكمة المتهمين الباقين، انقلب اثنان وتسعون شاهداً على الادعاء، وقال بعضهم إنهم يخشون على حياتهم.. وأُسقِطت التهم عن المتهمين. أُبعِد راجنيش راي – وهو الضابط المكلف بالتحقيق في قضية آمِت شاه – عن القضية. وعندما تقدم بطلب للتقاعد المبكر.. عُلِّق عمله.

في الوقت الذي أُسقِطت فيه التهم، كان مودي قد نصب آمِت شاه رئيساً لحزب B.J.P ورئيساً للائتلاف الحاكم – مما يجعله فعلياً ثاني أقوى رجل في البلاد.

في عام 2016، قررت رنا بعد أربع سنوات من محاولة العثور على ناشر لكتابها أن تنشره بنفسها. كانت لدى رنا أيوب نوع من الحماية بحكم أن كتابها كان باللغة الإنجليزية وسيقرؤه فقط من هم من النخبة الهندية، وهم مجموعة صغيرة جداً لا يهتم بها حزب B.J.P. في شهر مايو عُرِضَ الكتاب للبيع على أمازون وفي المكتبات في جميع أنحاء البلاد. سمَّت رنا كتابها: "ملفات غوجارات: تشريح الحقائق المخفية". "Gujarat Files: Anatomy of a Cover Up."

يروي كتاب "ملفات غوجارات" أهم المناقشات التي دارت بين رنا أيوب وكبار المسؤولين أثناء محاولتها معرفة ما حدث خلال فترة رئاسة مودي وآمِت شاه للولاية. ليس كتابها عملاً مصقولاً، بل يشبه كتيباً للمطلعين السياسيين أسرَعَ بنشره شخصٌ لا وقت لديه للتحقق من علامات الترقيم أو توضيح الاختصارات أو الخوض في الخلفية التاريخية

للقضايا التي نوقشت. قالت لي رنا أيوب: "لم يكن لدي الموارد الكافية للتفكير في كل ذلك. أردت فقط أن أنشر القصة". وتتمثل ميزة الكتاب في أن قارئه يشعر أنه يحضر حفلة كوكتيل لقوميين هندوس، يتحدث بصراحة عن الأسرار التي أُخفيت لفترة طويلة. قالت رنا أيوب: "الأمر وما فيه أن الجميع سمع الحقيقة، لكن ليسوا متأكدين. في كتابي يمكنك سماعها من مصدرها".

كان آشوك نارايان من بين أولئك الذين "استدرجَتهم" رنا أيوب، وكان يشغل منصب وزير الداخلية في غوجارات أثناء أعمال الشغب. وفقاً لرنا أيوب، قال آشوك نارايان إن مودي قرر السماح للقوميين الهندوس بالسير في موكب بجثث ضحايا هجوم القطار. قال آشوك نارايان إنه حذَّر مودي من أن "الأمور سوف تخرج عن السيطرة" ولكن دون جدوى. وعندما قاوم.. التفَّ مودي من ورائه. وقال أيضاً: "إن إحضار الجثث إلى أحمد أباد أشعل الأمر برمته، لكنه [مودي] هو الشخص الذي اتخذ القرار".

أضاف آشوك نارايان أن V.H.P – الذراع الديني لمنظمة R.S.S – قد قام باستعداداتٍ لشن هجمات واسعة النطاق ضد الطائفة المسلمة وكان فقط يبحث عن ذريعة. وقال آشوك نارايان: "لقد خطط الذراع الديني V.H.P لكل ذلك. كان الأمر شنيعاً"، مضيفاً أنه يعتقد أن مودي كان مشتركاً في الخطة منذ البداية. قال: "كان [مودي] يعرف كل شيء".

أخبر جي سي رايغار – مسؤول كبير بالشرطة – رنا أيوب أن الخطة الأولية كانت تتضمن السماح للهندوس بالقيام بانتقام محدود بشأن الهجوم. لكن العنف انتشر بسرعة كبيرة لدرجة أن حكومة مودي لم تعد قادرة على إيقافه. قال: "إنهم لم يريدوا استخدام القوة ضد مثيري الشغب – ولهذا السبب خرجت الأمور عن السيطرة".

جي سي رايغار – من بين آخرين – أخبر رنا أيوب أن قرار السماح بالانتقام من المسلمين تم تناقله خارج سلسلة القيادة الطبيعية: من المسؤولين حول مودي إلى ضباط الشرطة الذين كان يُعتَقد أنهم يكنُّون عداوات طائفية. وقال جي سي رايغار عن المسؤولين: "كانوا يخبرون أناساً من الذين أجبروهم في الماضي.. كانوا يعرفون من سيساعدهم". وتحدث بعض المسؤولين عن عمليات القتل بطريقة عادية جداً، كما لو أن المسلمين كانوا يستحقون القتل. وقال بي سي باندي – مفوض الشرطة السابق في أحمد آباد: "كانت هناك أعمال شغب في أعوام 1985، 1987، 1989، 1992، وفي معظم الأوقات تعرض الهندوس للضرب – وكان للمسلمين اليد العليا، لذلك هذه المرة – في عام 2002 – كان يجب أن يحدث ذلك، كان ذلك انتقامُ الهندوس".

صار بي سي باندي يوجِّه رنا أيوب وفقاً لمنطقه: "هذه مجموعة من المسلمين يذهبون ويشعلون النار في قطار – فماذا سيكون رد فعلك؟"

"ترد ضربتهم بأخرى؟"

قال بي سي باندي: "نعم، تردِّي عليهم بضربة. لقد أتيحت الفرصة، فرُدِّيها لهم. لماذا ينبغي أن يعترض أي أحد؟" لقد أقنعَتْها محادثات كهذه بأن أعمال الشغب قد حدثت لأن الأشخاص الموجودين في السلطة أرادوها أن تحصل" كان الأمر كما لو أن القطع المفقودة من أحجية تركيب الصور قد بدأت تظهر."

كما قال العديد من الضباط إن آمِت شاه كان قد قاد عمليات قتل خارج سلطة القضاء – من ضمنها قتل المتهم بأعمال الاغتيال 'شوراب الدين شيخ' وقتل الشهود على حادثة قتله. قوَّت المحادثات بشأن آمِت شاه قناعة رنا أيوب بأن الكثير من المشتبه بهم جنائياً قد تم القضاء عليهم بطريقة مماثلة. كتبت: "كان من الواضح أن ما وجدناه كان مجرد غيض من فيض".

تقول رنا أيوب: حتى الآن "بيعت ست مئة ألف نسخة من كتاب 'ملفات غوجارات' وتُرجم الكتاب إلى ثلاث عشرة لغة. قال لي هارتوش سينغ بال، المحرر السياسي في مجلة 'كارافان': "ما يجعل الأمر مقنعاً هو معرفة أن هؤلاء هم أكبر اللاعبين فيما حدث. إنهم يتحدثون في لحظات لا مبالاة، وهم يؤكدون ويضيفون معلومات إلى تلك التي نعرفها عنهم

عن طريق المصادر الأخرى حتى الآن، ولكن ليس بهذا القدر من المعلومات من الداخل. وفجأة نضع مكبر صوت في قلب الغرفة مع الأشخاص الذين يعرفون كل شيء".

ربما كان العامل الرئيسي الذي أحدث ضجة كبيرة لكتاب "ملفات غوجارات" هو المناخ الذي ظهر فيه. بحلول عام 2016، بعد عامين من ولاية مودي الأولى، كان في خِضمِّ حملة لسحق أي صوت يتحدى النظام الجديد.

انتشرت بشكل كبير تغريدةٌ على تويتر اقتُبس فيها كلام نُسب زوراً إلى رنا أيوب تطلب فيه التسامح مع المسلمين الذين اغتصبوا أطفالاً. تبعتها تغريدات مزيفة أخرى، من ضمنها واحدة مزيفة تعلن فيها كراهيتها للهند. ورداً على ذلك، كتب شخص يدعى فيجاي سينغ تشوهان، "لا تدعيني أراك على الإطلاق، أو سنخبر العالم بأسره بما نقوم بفعله مع فاجرة مثلك. احزمي حقيبتك وارجعي إلى باكستان."

غالباً ما تتعرض الصحافيات في الهند إلى شكل قبيح بشكل استثنائي من الإيذاء. كانت التهديدات التي تلقتها رنا أيوب مماثلة لتلك التي أُرسلت إلى غوري لانكيش، وهي صحفية وناشرة كتب من ولاية كارناتاكا الجنوبية. كانت غوري لانكيش قد قدمت تقريراً عنيفاً ضد القومية الهندوسية وعن العنف ضد النساء وأفراد الطبقات الاجتماعية الدنيا. كما نشرت كتاب رنا أيوب مترجماً إلى لغة الكانادا، وهي اللغة السائدة في الولاية. وفي سبتمبر، 2017، بعد أن قاست غوري لانكيش حملة طويلة من الهجمات عبر الإنترنت، قام رجلان بإطلاق النار عليها خارج منزلها ثم هربا على دراجة نارية.

أخبرتني نيها دِكسِت – التي قدمت تقارير رائدة عن حزب B.J.P – أنها تتلقى تهديدات بالقتل والسُباب الجنسي باستمرار. قالت: "كل يوم، استقبل ثلاثمائة إشعار فيه محادثات عن كيفية اغتصابي وقبيله". بالنسبة إلى نيها دِكسِت وآخرين ممن تستهدفهم هذه الحملات، من المريع جداً أن يبدو أن الإساءة قد أقرها حلفاء بارِزون لمودي. أرتني رنا أيوب تغريدةً لـ 'فايبهاف أغاروال' – وهو شخصية إعلامية يتحدث غالباً باسم B.J.P – يذكر فيها إساءة جنسية لرنا أيوب. يقول في التغريدة: "تريدين أن ترقصي في المطر وتبتلّي ثم بعدها لا ترغبين بالإصابة بالتهاب رئوي". وذلك إيحاء بأنها تستحق كل الإساءات التي وُجهت إليها.

براتيك سينها مهندس برامج سابق ومؤسس موقع Alt News، الذي يتتبع المعلومات المضللة عبر الإنترنت. وصف براتيك سينها عملية ذكية على وسائل التواصل تعمل باسم B.J.P. وفي عام 2017، قامت مجموعته باكتشاف نموذجي، عندما أصدر موقعٌ لأنصار حزب B.J.P وهو Hindutva.info مقطعاً مصوراً فيه طعن مروِّع بالسكين. تناقلته وسائل التواصل الاجتماعي كدليل على أن المسلمين كانوا يقتلون الهندوس في ولاية كيرالا. بونيت شارما – مسؤول في منظمة R.S.S ويتابعه مودي على تويتر – روّج مقطع الفيديو قائلاً إن المقطع يجب أن يجعل "دماء الهندوس يغلي". لكن عندما تتبّع موقع Alt News مصدر الفيديو، ظهر أنه يصور عملية قتل قامت بها عصابة في المكسيك.

أخبرني براتيك سينها أنه يعتقد أن بعضاً من أكثر منشورات التواصل الاجتماعي عدوانية يتم تحريضها بواسطة "خلية تكنولوجيا معلومات" يعمل بها ويمولها أناس موالون لحزب B.J.P. قال إن الأشخاص المنتسبين إلى B.J.P يدعمون مواقع إنترنت تروِّج للدعاية الموالية لمودي وتهاجم أعداءه. وقال: "إنهم منظَّمون وسريعون. لقد أتقنوا القيام بذلك منذ زمن طويل في غوجارات".

عندما أحكم مودي قبضته على الحكومة، استخدم قوتها لإسكات المنافذ الإعلامية الرئيسية. في عام 2016، بدأت إدارته تتحرك لسحق شبكة الأخبار التلفزيونية NDTV. كانت تلك القناة – منذ بداية بثها في عام 1988 – واحدة من أكثر القنوات الإخبارية حيوية وأكثرها مصداقية. في هذا الربيع – حين فُرِزت الأصوات في الانتخابات العامة – تلقى موقعها على شبكة الإنترنت 16.5 مليار زيارة في يوم واحد. ووفقاً لشخصين مطَّلِعين على الوضع.. سحبت إدارة مودي تقريباً جميع الإعلانات الحكومية من الشبكة – أحد مصادر دخلها الرئيسية – وضغط أعضاء حكومته على الشركات

الخاصة للتوقف عن شراء الإعلانات. سرَّحت هذه القناة مؤخراً حوالي أربعمائة موظف – أي ربع موظفيها. ويقول الصحفيون الباقون إنهم لا يعرفون كم من الوقت يمكن أن يستمروا. قال لي أحدهم: "إنها أيام عصيبة".

تلك السنة، وجد كاران ثابار – الصحفي الذي سأل مودي عما إذا كان يريد التعبير عن الندم بشأن أعمال الشغب في غوجارات – أنه لا يوجد أحد من حزب B.J.P يريد أن يظهر على برنامجه الليلي أبداً. فجأة لم يعد كاران ثابار – وهو أبرز صحفي تلفزيوني في البلاد – قادراً على تغطية مواضيع سياسية بفعالية. اكتشف عندها أن أعضاء حكومة مودي كانوا يدفعون رؤساءه في العمل لإبعاده عن البث. قال لي كاران ثابار: "إنهم يجلبون التعاسة للمرء.. 'نعتقد أنه ليس من الصائب إبقاؤه معنا'." (شبكته – الهند اليوم – تنفي أنها قد تأثرت بـ "ضغوط خارجية".) في عام 2017 أبدى رؤساؤه في العمل ترددهم في تجديد عقده، لذلك ترك العمل في الشبكة.

وفي العام الماضي، بوبي غوش – محرر صحيفة هندوستان تايمز، وهي واحدة من الصحف التي لها القدر الأكبر من الاحترام في البلاد – نظَّم سلسلة تتبَّع فيها العنف ضد المسلمين. التقى مودي بمالك الصحيفة على انفراد، وفي اليوم التالي طُلب من بوبي غوش المغادرة. في عام 2016، أجرت مجلة Outlook الهندية تحقيقاً مثيراً للقلق قامت به نيها دِكسِت، وكشف أن منظمة R.S.S عرضت أن ترسل عشرات الأطفال الفقراء في ولاية آسام إلى المدارس، ثم أرسلتهم إلى معسكرات هندوسية قومية ليُلقنوا فكرياً في الجانب الآخر من البلاد. وفقاً لشخص على دراية بالوضع، تعرض مالكوا مجلة Outlook – وهي إحدى أكثر الأُسَر ثراءً في الهند، وتعتمد أعمالها على موافقات حكومية – لضغوط من إدارة مودي. قال الشخص: "لقد كانوا سيدمرون إمبراطوريتهم". بعدها بوقت ليس بطويل استقال كريشنا براساد – المحرر العامل في مجلة Outlook منذ فترة طويلة.

قالت كل من رنا أيوب ونيها دِكسِت أنه لا يوجد إعلام رئيسي يرعى عملهما. قالت لي رنا أيوب: "الكثير من المراسلين الجيدين في الهند يعملون 'فريلانس' (عمل حر ومستقل).. لا يوجد أي مكان نذهب إليه". حتى الأخبار التي يفترض أن تسبب فضيحة.. تأثيرها ضئيل. في يونيو، ذكرت مجلة بزنس ستاندرد **Business Standard** أن حكومة مودي كانت تضخّم معدلات نمو الناتج المحلي الإجمالي بما يقارب الضِعف. أثار التقرير غضباً عاماً، لكن مودي لم يعتذر، ولم يُجبَر أي من المسؤولين على الاستقالة.

فقط عدد قليل من الجماعات الصغيرة تُقدِّم تغطية قوية بشكل منتظم. أبرزها – مجلة **The Caravan** وموقع إخباري يسمى **The Wire** – يوظف حوالي سبعين صحفياً – وهو عدد بالكاد يكفي لتغطية مدينة كبيرة، ناهيك عن بلد يزيد عدد سكانه عن مليار شخص. في عام 2017، بعد أن نشر موقع **The Wire** خبراً عن تعاملات تجارية مشبوهة يديرها ابن **آمِت شاه**، بدأ وزراء مودي بالضغط على الجهات المانحة التي تقدم الدعم للموقع للتوقف عن تقديم التمويل. كما رفع ابن **آمِت شاه** – الذي نفى هذه الادعاءات – دعوى قضائية كان الدفاع فيها مكلفاً. أخبرني سيدهارث فاراداراجان – المحرر المؤسس للموقع – أنه يكافح ليس فقط ضد الحكومة بل وأيضاً ضد وسائل الإعلام المذعنة للحكومة. وقال: "نعتقد أن الناس في هذا البلد يقدِّرون قيمة حرياتهم وديمقراطيتهم – وأنهم سيدركون عندما تتلاشى حرياتهم. لكن قسماً كبيراً من وسائل الإعلام منشغل بإخبارهم بشيء مختلف تماماً."

غالباً ما يحصل أنصار مودي على أخبارهم من قناة RepublicTV، التي تعرض مباريات صراخ وتشهير علني، وشتائم لاذعة للجميع باستثناء أنصار مودي الأكثر عبودية له. تأسست قناة RepublicTV عام 2017 بدعم من حزب B.J.P. ويبرز فيها أرناب غوسْوامي، وهو خريج من جامعة أكسفورد يقوم بدور الجلاد العمومي لمعارضي أنشطة مودي. في برنامج اعتيادي في عام 2017، ذكر غوسوامي قانوناً يفرض على دور السينما دور النشيد الوطني، وتساءل عما إذا كان ينبغي مطالبة الناس بالوقوف له؛ قال ضيفه واريس باثان – وهو عضو مسلم في مجلس الولاية – إنه ينبغي أن يكون مسألة اختيار. صرخ غوسوامي في واريس باثان: "لماذا لا تستطيع الوقوف؟". قبل أن يتمكن باثان من الإجابة

بدأ يصرخ به: "لماذا لا تستطيع الوقوف؟ ما هي مشكلتك في ذلك؟ سوف أخبرك بالسبب.. لأنه.. – سأخبرك بالسبب.. سأخبرك.. سأخبرك لماذا.. ممكن أخبرك؟ إذاً لماذا لا تتوقف حتى أخبرك لماذا؟ لا تكن ضد القومية! لا تكن ضد القومية! لا تكن ضد القومية!"

عدم وجود تدقيق صحفي أعطى مودي حريةً هائلة للسيطرة على مجريات الأحداث. لم يكن هذا أكثر وضوحاً مما كان عليه في الأشهر التي سبقت إعادة انتخابه في عام 2019. أدار مودي حملة قيل إنها تكلف حوالي خمس مليارات دولار بدعم من حلفائه في مجال الأعمال التجارية. (تكلفتها بالضبط غير معروفة، بسبب القوانين الضعيفة المتعلقة بتمويل الحملات.) ومع ذلك، كان مودي يفقد الزخم مع اقتراب التصويت.. ما أعاقه هو الاقتصاد الذي لم يرتقِ إلى المستوى المطلوب. في 14 فبراير، فجر مهاجِم انتحاري سيارة محملة بالمتفجرات في قافلة عسكرية هندية في كشمير فقتل أربعين جندياً. نشَّط الهجوم مودي: ألقى سلسلة من الخطب العدائية، مصرَّاً على أن "دماء الناس تغلي!" وألقى باللوم في الهجوم على باكستان – الخصم الأكبر للهند – وأرسل الآلاف من الجنود إلى كشمير. أطلق أنصار حزب B.J.P هجوماً عبر وسائل التواصل الاجتماعي، حيث هاجموا باكستان وأشادوا بـ مودي باعتباره "نَمِراً". وتضمن أحد المنشورات على مواقع التواصل الاجتماعي الذي انتشر بكثرة تسجيلاً هاتفياً لمودي يواسي فيه إحدى الأرامل.. اتضح أن التسجيل يعود لعام 2013.

في السادس والعشرين من فبراير، أمر مودي بشن غارات جوية ضد ما زعم أنه معسكر تدريبي لمسلَّحين في بلدة بالاكوت. ووصفت وسائل تواصل متعاطفة معه العملية بالانتصار الكبير.. فقد ضخت الكثير من الصور لمكان مدمَّر. وادعت – نقلاً عن مصادر رسمية – مقتل ثلاثمائة مسلح. لكن المراسلين الغربيين الذين زاروا الموقع لم يعثروا على أي دليل على حدوث أي وفيات.. لم يكن هناك سوى عدد من الحفر ومنزل مدمر قليلاً وبعض الأشجار الساقطة. تبيَّن أن العديد من المنشورات الموالية لمودي كانت افتراءً محضاً. أشار براتيك سينها – من قناة Alt – إلى أن الصور التي زُعِم أنها تصور المسلحين الباكستانيين القتلى إنما أظهرت في الواقع ضحايا موجة حر. صورٌ أخرى – زعموا أنها من الضربات الجوية – كانت مأخوذة من لعبة فيديو تدعى"Arma 2 ".

ولكن في بلد فيه مئات الملايين أُمِّيُّون أو شبه أمِّيِّين، مرَّت الفكرة الضخمة. ارتفعت نسبة أصوات مودي في صناديق الاقتراع وانتهى الأمر بفوزه. فاز حزب B.J.P بأغلبية في مجلس النواب، مما جعل مودي أقوى رئيس وزراء منذ عقود. أخبر آمِت شاه – نائب مودي – مجموعة من العاملين في الانتخابات أن شبكات التواصل الاجتماعي للحزب كانت قوة لا يمكن وقفها. قال: "هل تفهم ما أقوله؟ نحن قادرون على إيصال أي رسالة نريدها للعامَّة – سواء كانت تسرّهم أو تغضبهم.. حقيقيةً كانت أم زيفاً."

بالنسبة للكثيرين، كان انتخاب مودي للمرة الثانية يوحي أنه كشف سراً رهيباً في قلب المجتمع الهندي: أنه "يمكن لزعيم البلاد إقناع الهندوس بمنحه سلطة لا حدود لها من خلال نشره خطاباً طائفياً خبيثاً". قدمت حكومة مودي في الأشهر التالية سلسلة مبادرات استثنائية تهدف إلى إحكام الهيمنة الهندوسية. كان أبرزها – إلى جانب إلغاء الوضع الخاص لكشمير – إجراءٌ يهدف إلى سحب الجنسية من حوالي مليونين من سكان ولاية آسام الذين عَبَرَ أكثرهم الحدود قادمين من دولة بنغلاديش المسلمة منذ عقود. في سبتمبر، بدأت الحكومة ببناء مراكز احتجاز للمقيمين الذين أصبحوا غير شرعيين بين عشية وضحاها.

انتشر شعور باليأس بين العديد من الهنود الذين كانوا ما زالوا متمسكين بالرؤية العلمانية الشاملة لمؤسسي الدولة. قال لي براساد – محرر مجلة Outlook السابق: "كان غاندي ونهرو من الشخصيات التاريخية العظيمة، لكنني أعتقد أنهما كانا حالة استثنائية. الأمر مختلف جداً الآن. لقد انهارت المؤسسات – الجامعات ووكالات التحقيق والمحاكم ووسائل الإعلام والهيئات الإدارية والخدمات العامة. وأعتقد أنه لا توجد إجابة يقبلها العقل لما حدث، سوى أننا تظاهرنا

بأننا كنا كما كنا طوال خمسين أو ستين عاماً. لكننا الآن نعود إلى الشكل الذي نريده دائماً، ألا وهو سحق الأقليات وحشرهم في زاوية وإطلاعهم على أماكنهم ولغزو كشمير ولإفساد وسائل الإعلام، ولجعل الشركات خدماً للدولة. وكل هذا في ظل انتعاش شديد للهندوسية. أصبحت الهند الدولة التي لطالما أرادت أن تكون".

في 31 مارس 2017، توجه مزارعٌ مسلم من منتجي الألبان اسمه بيهلو خان إلى مدينة جايبور مع العديد من الأقارب لشراء بقرتين لمشروعه. في طريقه إلى المنزل، أغلق مجموعة من الرجال الطريق وحاصروا شاحنته واتهموه بالتخطيط لبيع الأبقار كلحوم. الأبقار مقدسة عند الهندوس، ومعظم الولايات الهندية تحظر قتلها. لكن بصفة عامة يسمح القانون بأكل لحم الأبقار التي ماتت بشكل طبيعي والاستفادة من جلودها – وهي وظائف غالبا ما يمتهنها المسلمون والطبقات الدنيا من الهندوس، وهذا يجعلهم عرضة لاتهامات زائفة. جرَّ الرجال بيهلو خان وأقاربه من الشاحنة وبدأوا بضربهم والصراخ فيهم بنعوت معادية للمسلمين. قال ابن أخيه: "لقد أريناهم أوراق شراء الأبقار، لكن هذا لم يكن مهماً بالنسبة لهم"، نُقِل خان إلى المستشفى حيث توفي بعد ذلك بوقت قصير.

تمكن أقارب خان من التعرف على تسعة من المهاجمين. كان معظمهم أعضاء في ‘باجرانغ دال’ – أحد فروع منظمة R.S.S. ولكونها تتألف ظاهرياً من الشباب فإنها توفر القوة البدنية اللازمة والحراسة لأعضاء حزب B.J.P. كما تَورَّط هذا الفرع بسلسلة من جرائم قتل للمسلمين في جميع أنحاء البلاد.

في جايبور، التقيت بـ آشوك سينغ، رئيس فرع باجران دال في راجستان. أخبرني آشوك سينغ أنه ورجاله ملزمون بالدفاع عن الأبقار من الوباء المتمثل بسرقتها وقتلها. تحدث لعدة دقائق عن قداسة البقرة. وقال إن كل حيوان فيه ثلاثمائة وستون مليون إله، وحتى روثه فيه أكاسير مفيدة للبشر. قال آشوك سينغ عن المسلمين: "إنهم يذبحونها ويقتلونها. إنها مؤامرة". واعترف بأن أعضاء فرع باجران دال شاركوا في إيقاف خان، لكنه أصر على أن من قتله هم أشخاص آخرون. قال: "كان هناك الكثير من الغوغاء. لم يكن لدينا القدرة على السيطرة عليهم"

ألقي القبض على المهاجمين الذين تعرف عليهم أقارب خان ووجهت إليهم تهم، لكن أهل الأهالي تعاطفوا معهم. بعد أن رفض المدعي العام قبول شهادة أي من الشهود أو تسجيلات الفيديو في الهواتف الخلوية كأدلة، تمت تبرئة جميع المهاجمين. قال لي قاسم خان وهو محامي العائلة: "لقد زُوِّرت القضية". "قُرِّرت النتيجة قبل المحاكمة."

وفقاً لـ فاكت تشيكر ‘FactChecker’، وهي منظمة تتعقب العنف الطائفي من خلال مسح تقارير إعلامية: كان هناك ما يقرب من ثلاثمائة جريمة كراهية بدوافع دينية في العقد الماضي – جميعها تقريباً حصلت منذ أصبح مودي رئيساً للوزراء. لقد قتل الغوغاء الهندوس العشرات من الرجال المسلمين. أصبحت جرائم القتل، التي غالباً ما يحرِّض عليها أعضاء فرع باجران دال، تُعرف باسم "عمليات القتل الغوغائي"، والتي تثير الرعب الذي اجتاح الجنوب الأمريكي بعد إعادة الإعمار. تتم عمليات القتل الغوغائي على خلفية الهستيريا التي أحدثتها منظمة R.S.S وحلفاؤها: الذعر الحاصل لدى الغالبية العظمى التي تُقدَّر بمليار شخص من كونها ضحية لأقلية أصغر بكثير.

عندما يُقتل المسلمون بهذه الطريقة، فإن مودي لا يقول شيئاً وبما أنه نادراً ما يعقد مؤتمرات صحفية فإنه لا يُسأل عنهم مطلقاً. لكن مؤيديه غالباً ما يُحَيُّون القتلة. في يونيو 2017، رجل مسلم اسمه عليم الدين أنصاري – كان قد اتُّهم بالاتجار الغير قانوني بالبقر –ضُرِب حتى الموت في قرية رامغاره. أُدين أحد عشر رجلاً بالقتل– من ضمنهم زعيم محلي من حزب B.J.P. لكن أُطلق سراحهم في يوليو الماضي بانتظار الاستئناف. عند إطلاق سراحهم، قابل جايانت سينها ثمانية منهم – وهو وزير الطيران المدني من حزب B.J.P. جايانت سينها، وهو خريج جامعة هارفارد ومستشار سابق في شركة ماكينزي آند كومباني، ألبس الرجال أكاليل الزهور وقدم لهم الحلويات. وقال حينها: "كل ما أقوم به هو احترام الإجراءات القانونية".

أثار القوميون الهندوس في شمال الهند الذعر حول فكرة أن الرجال المسلمين يشاركون في حملة سرية لإغواء نساء الهندوس للزواج والدعارة. كما هو الحال مع الهستيريا المتعلقة بقتل الأبقار، يتشكل الصخب في الغالب على وسائل التواصل الاجتماعي ومنصات مثل واتساب، حيث تنتشر الشائعات بشكل عشوائي. الفكرة المعروفة باسم "جهاد الحب": [يتظاهر المسلم بحب الفتاة غير المسلمة طمعاً في أن تعتنق الإسلام] – تكمن جذورها في صورة الذكر المسلم الذي لا يفكر إلا في الجنس، يتقوّى باللحم البقري ويتصيَّد النساء الهندوسيات الجذَّابات. أي رجل مسلم يُشاهَد مع امرأة هندوسية فإنه عُرضة للهجوم في العديد من المناطق. قبل عامين أنشأ وزير ولاية أُوتار براديش – من حزب B.J.P – فرقاً مضادة لهذه الظاهرة، والتي وجهت مضايقات للرجال المسلمين ممن يُعتقد أنهم يحاولون إغواء النساء الهندوسيات. أُوقِف عمل الفرق بعد أن قامت العصابات بضرب عدد من الرجال الهندوس خطأً.

في قريةٍ في ولاية هاريانا، تحدثْتُ مع امرأة هندوسية شابة تدعى عائشة. قبلها بعام، قابَلَت عائشة رجلاً مسلماً يدعى عمر، وهو بائع للطب الروحي كان يزور منزلها لعلاج والدتها. أحب كل منهما الآخر، وقررا أن عائشة ستعتنق الإسلام ويتزوجان. قالت إن عائلتها شعرت بالرعب. هربت عائشة مع عمر في إحدى الليالي إلى قريته التي تبعد بضعة أميال، وتزوجا في مسجد، وانتقلا إلى أقاربه. قالت عائشة إن عائلتها حاولت لعدَّة أشهر إقناعها بالطلاق وذات مرة أحضر لها والدها مسدساً وورقة انتحار لتوقعها. قالت: "كنت حزينةً للغاية، وتقريباً وافقته في ذلك".

بينما كان عمر يركب دراجته في إحدى الليالي، تبعه رجلان على دراجات نارية (سكوتر). سحب أحدهم مسدساً وقتل عمر. بقيت عائشة مع عائلة عمر وقالت إنها لن تعود إلى عائلتها أبداً. وقالت: "أنا متأكدة مائة في المائة من أن أهلي مسؤولون عن وفاة زوجي".

عندما كانت رنا أيوب طفلة، اجتمعت مجموعة من الرجال كل صباح للصلاة والتدريب على فنون الدفاع عن النفس في ميدان يقع في آخر الشارع الذي يطل عليه منزلها. شكل الرجال فرعاً محلياً لمنظمة R.S.S، ورددوا في بعض الأحيان شعارات تمجِّد السيادة الهندوسية: "تحية لدولة الهند الأم". كان الرجال ودودين وحريصين على تجنيد المسلمين. لكنها علِمت في المدرسة أن أحد أتباع منظمة R.S.S كان قد قتل غاندي، لذلك بقيت وشقيقها ‘عارف’، بعيدة عنهم. قالت: "كنا نشاهد بافتتان، لكنني لم أكن أحب أن أكون هناك."

في وقت مبكر من صباح أحد الأيام في أحمد آباد، في ملعب بمدرسة إليزبريدج المحلية رقم 12، كنت أنظر إلى هناك عندما قام عشر رجال برفع العلم الزعفراني لمنظمة R.S.S. تراوحت أعمارهم بين الثامنة عشرة والثالثة والستين، وكانوا جميعاً رشيقين وذوي لياقة بدنية، وكان العديد منهم يرتدون السراويل القصيرة ذات اللون الخاكي المميِّزة للجماعة. بدأوا بوضعيات يوغا وتمارين رياضية. ثم أخرجوا عصيّاً خشبية طويلة وبدأوا بأداء التدريبات العسكرية. (قال أحد قادة منظمة R.S.S ذات مرة إن كوادر الجماعة يمكن تجميعها للقتال أسرع من الجيش الهندي).

انتهى الرجال وشكلوا نصف دائرة على الأرض، وصلَّوا للإله الهندوسي.. الشمس: "يا أيتها المشرقة! يا مبددة الظلام! يا مصدر الحياة!" وانتهوا بصراخ: "النصر للهند".

بعد ذلك، ضحك الرجال – كان من ضمنهم مهندسٌ ومحامٍ وتاجر ملابس وشرطي – وربَّت بعضهم على ظهر الآخر. لقد شكلوا معاً فرع ‘بالدي’ لمنظمة R.S.S، وهو واحد من أكثر من ثلاثين ألفاً عبر الهند. بالدي هو حي ذو أغلبية هندوسية بنسبة كبيرة، ولكن أقرب جيب للمسلمين – والذي تعرض للهجوم في عام 2002 –يبعد أقل من ميل واحد. في هذا الصباح، لم يكن هناك الكثير من الحديث عن السياسة. قال لي طالب اسمه نيهال بوراسين: "أنا هنا فقط لأحافظ على لياقتي".

للحصول على شرح أكمل لنظرة منظمة R.S.S إلى العالم، تحدثت إلى سودهانشو تريفيدي، وهو عضو دائم أصبح الآن المتحدث الرسمي باسم B.J.P. أخبرني سودهانشو تريفيدي خلال العشاء في فندق أمباسادور في دلهي أن منظمة

R.S.S مكرسة لنشر "هندوتفا": وهي فكرة أن الهند هي قبل كل شيء أمة للهندوس. وقال إن منظمة R.S.S أكبر منظمة من نوعها في العالم. وفي وجودها لمدة أربعة وتسعين عاماً، كانت قد ترسخت في كل جانب من جوانب المجتمع الهندي.

تقول المنظمة إنها تدير حوالي ثلاثين ألف مدرسة ابتدائية وثانوية، وتدير مستشفيات في جميع أنحاء الهند، وخاصة في المناطق النائية وأن لديها ثاني أكبر شبكة من النقابات المهنية في الدولة وأكبر شبكة من المزارعين، وأكبر منظمة للرعاية الاجتماعية تعمل في الأحياء الفقيرة. جاء حزب B.J.P – الحزب السياسي المهيمن في الهند – في آخر السلسلة التي سردها. "لذلك، يمكنك أن ترى في مخطط الأشياء بأكمله – مقارنة بما تفعله منظمة R.S.S – ما يفعله حزب B.J.P قليل. في الواقع، إن منظمة R.S.S كانت تتحول بسرعة إلى دولة داخل دولة – مسيطرة على الهند من الداخل.

أعلنت المنظمة خلال الصيف أنها ستنشئ مدرسة لتدريب الشباب ليصبحوا ضباطاً في القوات المسلحة. هذا العام، وقَّع أكثر من مائة وخمسين من الضباط السابقين والرجال المجندين على خطاب يدين استخدام "غير مقبول أبداً" للجيش لأغراض سياسية. كانوا يشيرون إلى نسبة مودي الفضل لنفسه في الضربات عبر الحدود في باكستان، وإلى التفاخر بالجيش الذي أبداه بعض الساسة في حزب B.J.P بوصفه "جيش مودي".

أخبرني سودهانشو تريفيدي أن مفتاح فهم الهند الحديثة هو قبول أن "الهندوسية ليست ديانة ببساطة، بل إنها طريقة للحياة". أي شخص يولد في الهند هو جزء من الهندوسية. ولذلك تزدهر جميع الديانات الأخرى الموجودة في الهند بسبب الهندوسية.. وتتبع للهندوسية. وقال "ثقافة الإسلام محفوظة هنا بسبب الحضارة الهندوسية".

كجزء من مشروع هندوتفا يقوم قادة حزب B.J.P بإعادة كتابة الكتب المدرسية في جميع أنحاء البلاد، ويحذفون معظم تاريخها الإسلامي – ومن ضمنه تاريخ المغول، وهم أباطرة مسلمون حكموا الهند لمدة ثلاثة قرون. غيَّر حزب B.J.P أسماء الأماكن المغولية إلى أسماء هندوسية. في العام الماضي غُيِّر اسم محطة سكة القطار 'مغولساراي' – التي بُنيت في وسط الهند منذ قرن ونصف – إلى دين 'دايال أُبادهيايا'، وهو زعيم هندوسي قومي يميني. 'الله أباد' – مدينة يزيد عدد سكانها عن مليون نسمة – تسمى الآن 'برايااراج'، وهي كلمة سنسكريتية تشير إلى مكان تقديم الأضحية. في نوفمبر، عادت قصة 'أيوديا' القديمة إلى الأخبار مرة أخرى، عندما سمحت المحكمة العليا في الهند ببناء معبد هندوسي في موقع مسجد بابري. في قرار مكوَّن من ألف صفحة، لم تقدم المحكمة أي دليل على أن المعبد قد دُمِّر لبناء المسجد، وأقرت بأن المسجد قد هدمه مجموعة من الغوغاء الغاضبين. ومع ذلك فقد سلمت الموقع للحكومة، مما سمح لحزب B.J.P بمباشرة بناء المعبد.

أخبرني سودهانشو تريفيدي أنه لا يوجد أحد في منظمة R.S.S. يكِنُّ عداوة للإسلام. لكنه قال إنه من المهم أن نفهم إلى أي مدى تدهور الإيمان. "المجتمع الأكثر ثقافة في الهند هم البارسيُّون، وهم أقلية. وثاني أكثر مجتمع مثقف هم المسيحيون، وهم أقلية. المجتمع الأكثر ازدهاراً هم طائفة الجين، وهم أقلية. أكثر أصحاب المشاريع الريادية هم طائفة السيخ، وهم أقلية. أول عالم نووي في الهند كان بارسيا، وهو من الأقلية. فما هي المشكلة مع المسلمين إذن؟ سأخبرك. لقد أصبحوا أسرى للفكر الجهادي".

عندما احتُجِزَت رنا أيوب والمصوِّرة في المستشفى في سريناغار، وجدْتُ مكاناً للاختباء في الجهة المقابلة من الشارع. كانت رنا أيوب ستواجه تبِعات خطيرة إذا تبين أنها أدخلت شخصاً أجنبياً خلسةً. خرجتا بعد حوالي ساعة وقالت رنا أيوب إن ضابط مخابرات استجوبهما باهتمام ثم أطلق سراحهما موبِّخاً إياهما: "لا تعودا".

في صباح اليوم التالي، توجهنا إلى قرية باريغام الواقعة بالقرب من موقع الهجوم الانتحاري الذي كان الدافع وراء غارات مودي الجوية على باكستان. سمعنا أن قوات الأمن الهندية قد اجتاحت المدينة واحتجزت العديد من الرجال. يحظى التمرد بدعم كبير في القرى الواقعة خارج العاصمة، وقد اتَّسم الطريق المؤدي إلى باريغام بوجود الأكياس الرملية

والأسلاك الشائكة لنقاط التفتيش التابعة للجيش الهندي. كانت الطرقات مهجورة في معظم المسافة التي قطعناها إلى هناك.

في القرية، أوقفت رنا أيوب السيارة لتتحدث إلى بعض أهل المنطقة. اكتشفت خلال بضع دقائق مع من يجب أن نتحدث أولاً: شابير أحمد، وهو صاحب مخبز محلي. وجدناه متربِّعاً على شرفته وهو يقشر كومة ضخمة من اللوز. في المقابلات تخفف رنا أيوب من وتيرة النقاش المعتادة في المناظرات؛ أخذت مكاناً من الشرفة كما لو كانت قادمة من أجل زيارة قصيرة. أخبرها أحمد – ذو الخمسة وخمسين عاماً – أنه خلال عمليات المسح، جاءت مركبة مصفحة إلى منزله بعد منتصف الليل. هرع عشرات الجنود من قوات 'راشتريا رايفلز'، وهي وحدة مسلحة من الجيش الهندي لمكافحة التمرد، وبدأوا في تحطيم نوافذ بيته. وقال إنه عندما جاء أحمد وابناه إلى الخارج، جرَّ الجنودُ الشابَين إلى الشارع وبدأوا بضربهما. قال أحمد: "كنت أصرخ طلباً للمساعدة، لكن لم يخرج أحد. كان الجميع خائفين للغاية."

انضم إلينا ابْنا أحمد على الشرفة. وقال أحدهما – واسمه مُظَفَّر – إن الجنود استشاطوا غضباً من شبابٍ ألقَوا حجارةً على دورياتهم. جرُّوا مُظَفَّر إلى الشارع باتجاه المسجد ثم أمره أحد الجنود قائلاً: "إرمِ الحجارة إلى المسجد كما كنت تلقي الحجارة علينا".

قال مُظَفَّر إنه نُقل هو وأخوه علي إلى قاعدة محلية، حيث قيَّدهما الجنود على كراسٍ وضربوهما بعصي الخيزران. وقال "ظلوا يسألونني: 'هل تعرف أي واحد ممن كانوا يرمون الحجارة؟' وظللت أقول إنني لا أعرف أي واحد منهم، إلا أنهم ظلوا يضربونني". وقال مُظَفَّر إنه عندما أغمي عليه ربط جندي منهم أقطاب كهربائية على ساقيه وبطنه وصعقه بالكهرباء. رفع مُظَفَّر بنطاله وكشف بقعاً من الجلد المحروق على ساقه من الخلف. لقد استمر الأمر هكذا لبعض الوقت، قال إنه كان يغمى عليه، وعندما يستعيد وعيه، يبدؤون بضربه مرة أخرى. وقال: "كانت تحدث لجسدي تشنجات"، ثم بدأ يبكي.

بعد إطلاق سراح مُظَفَّر وعلي، نقلهما والدهما إلى المستشفى المحلي. قال مُظَفَّر: "لقد كسَّروا عظامي. لم أعد أستطيع أن أسجد لله".

كان من المستحيل التحقق من حكاية الأخوين، ولكن كما هو الحال مع العديد من الروايات التي سمعناها أنا ورنا أيوب في القرية.. كان الألم مقنعاً. قالت لي رنا أيوب: "أنا نسخة أكثر تحضراً قليلاً من هؤلاء الناس. أنا أرى ما يحدث.. الدعاية والكذب وما تفعله الحكومة للناس. لكن لدي كل شيء مشترك مع هؤلاء الناس. إنني أشعر بألمهم".

في أحد الأيام، مشينا أنا ورنا أيوب بعد الظهر في شارع سورا، وهو حي قاحل في المدينة القديمة لسريناغار، وكان الحي مَوْقِعاً لعدة مواجهات مع قوات الأمن. في الوقت الذي وصلنا فيه إلى هناك، كانت الشرطة والجيش قد انسحبوا، ومن الواضح أنهم رأوا أن الشوارع الضيقة جعلت رجالهم غير محصنين أبداً. أخبرنا أهل الحي أنهم يرَون سورا أرضاً محررة أخذوا عهداً على أنفسهم بمهاجمة أي شخص من الحكومة يحاول الدخول. بدا كل جدار فيه مليئاً بالكتابات. إحدى الخربشات كانت: "التغيير الديموغرافي غير مقبول!"

شعر الكشميريون الذين قابلناهم أنهم محاصرون وأن أصواتهم قد قُمِعت. وقال يونس – وهو صاحب متجر – عن وسائل الإعلام الهندية: "الأخبار الحقيقية.. لا ينشرونها أبداً". قبلها بأيام قُبض على ابنه عاشق البالغ من العمر ثلاثة عشر عاماً، وتعرض للضرب على أيدي قوات الأمن تماماً كما حصل معه هو قبلها بثلاثين عامٍ. وقال: "لم يسأل أحدٌ أبداً شعب كشمير عما يريدون.. إن كانوا يريدون البقاء مع الهند أو الانضمام إلى باكستان أو أن يصبحوا مستقلين. لقد سمعنا الكثير من الوعود. لقد رفعنا جُثثاً بأيدينا، ورؤوساً منفصلة عن الأجساد، وأرجلاً مبتورة، ووضعناها كلها في قبور".

ما يزال الكثير من الكشميريين يرفضون قبول السيادة الهندية، ويتذكر البعض الوعد الذي قطعته الأمم المتحدة في عام 1948، بأن الاستفتاء سيحدد مستقبل الولاية. مُنِحت كشمير وضعاً خاصاً – محفوظ في المادة 370 – ومُنِحت صلاحيات كبيرة في الحكم الذاتي. لم تتحقق معظم تلك الصلاحيات. ابتداءً من أواخر الثمانينيات، حوَّل التمرد المسلح – الذي تدعمه باكستان – المنطقة إلى ساحة حرب. الصراع في كشمير هو بصورة عامة حربُ كمائن وهجمات انتقامية. يقوم المتمردون بضرب قوات الأمن الهندية فترد قوات الأمن بحملات قمع. لدى جماعات مثل 'هيومن رايتس ووتش' سجلات مفصلة لانتهاكات من كلا الجانبين، ولكن بشكل استثنائي الانتهاكات من جانب الحكومة الهندية.

ادَّعت منظمة R.S.S وآخرون من القوميين الهندوس أن الجهود المبذولة لتهدئة الكشميريين خلقت ديناميكية فشل ذاتي. وقالوا إن التمرد خنق التنمية الاقتصادية، وأن المادة 370 كانت تقيِّد الاستثمار والهجرة، وتؤدي بالمنطقة إلى التخلف. بدا قرار مودي بإلغاء المادة بمثابة نقطة النهاية المنطقية لنظرة منظمة R.S.S إلى العالم: الجمود الكشميري ستكسِره قوةٌ هندوسية ساحقة.

بينما كنت أنا ورنا أيوب نتجول في كشمير، بدا من غير الواضح كيف تنوي الحكومة الهندية الاستمرار. النشاط الاقتصادي قد توقف.. المدارس مغلقة.. عُزِل الكشميريون عن العالم الخارجي وعن بعضهم البعض. أخبرنا طبيب في سريناغار: "لدينا أعداد ضخمة من حالات الاكتئاب". حَذَّر العديد من الكشميريين من أن الانفجار قد يكون على الأرجح لحظة رفع الإجراءات الأمنية. قالت امرأة تدعى دوشديا "إن مودي يفعل ما فَعَلَه في غوجارات منذ عشرين عاماً عندما دهس المسلمين بجرَّارٍ هناك".

كتب صاحب العمود في صحيفة 'براتاب بهانو ميهتا' أن "الديمقراطية الهندية تفشل" في كشمير. وأشار إلى أن مسلمي البلاد – الذين قاوموا التطرف إلى حد كبير – سيستنتجون أنه ليس لديهم شيء آخر يلجؤون إليه. وكتب أن "حزب B.J.P يظن أنه سيحول كشمير إلى ولاية هندية عادية.. إنما ما سنراه هو احتمال تحويل الهند إلى كشمير كبيرة: قصة الديمقراطية الهندية المكتوبة بالدم والخيانة".

زرت أنا ورنا أيوب حي 'مهجو ناغار' في سريناغار، الذي تركه العديد من الشباب للانضمام إلى المسلحين. كان الحديث في الشارع عن زوجين: نزير وفامِدا اللذَين أعتُقِل ابنهما – اسمه مؤمن – في الحملة. جاء رجال مسلحون من قوة شرطة الاحتياط المركزية إلى بيتهم في وقت متأخر في إحدى الليالي. أشار مدنيٌ ملثم – من الواضح أنه مخبِر – إلى مؤمن. ثم أخذه الجنود معهم.

وجدنا فامِدا في منزلها، جاثية ركبتيها. أخبرتنا أنها ذهبت في صباح اليوم التالي للمداهمة إلى قاعدةٍ لقوة شرطة الاحتياط المركزية، حيث احتُجِز ابنها. قال لها إنه تعرض للضرب. قالت: "لقد توسلت إليهم أن يعيدوه إليّ، لكنهم لم ينظروا في الأمر". وعندما عادت فامِدا في اليوم التالي، أخبرها الشرطة أن مؤمن نُقل إلى السجن المركزي بالمدينة. لكن الحراس قالوا إنه نُقل إلى سجن في ولاية 'أوتار براديش'، الواقعة على الجانب الآخر من البلاد. أخبروها: "لا فائدة من البكاء يا خالة".

قالت فامِدا إنهم لم يخبروها بالتهم الموجهة ضد مؤمن. يَسمَح قانون مكافحة الإرهاب الهندي لقوات الأمن باحتجاز أي كشميري لأي سبب أو حتى بدون سبب لمدة تصل إلى عامين. خلال العقود الثلاثة التي مرت بها كشمير في تمرد صريح اختفى عشرات الآلاف من الرجال، والكثيرون لم يرجعوا. قالت: "يجب أن أقبل أنني لن أراه مرة أخرى".

في منزل فامِدا تجمعت صديقاتها حولها، بينما وقف رجال من الحي خارج النوافذ المفتوحة. جلست رنا أيوب قبالتها وقد تلامست ركبتاهما. بينما كانت فامِدا تتكلم، كان بعض الرجال يتكلم عنها، وفي كل مرة كانت رنا أيوب تقول لهم أن يصمتوا: "لا توبخها يا عم، لديها ما لديها من مشاكل".

بدأت فامِدا محافظة على صبرها، لكنها فقدت رباطة جأشها تدريجياً. أمسكت رنا أيوب بيديها وقالت: "ابنك سيعود إليك. الله كبير". لم يواسِ ذلك فامِدا. لقد كان مؤمن عامل بِنَاء، وكان يغطي احتياجات الأسرة بأكملها، ومن ضمنها دواؤها لمرض الكلى الذي تعاني منه. بدأت أفكار فامِدا تخرج متقطعة: "لقد أخبرتُه.. لا ترمِهم بالحجارة.. أخذه أحدهم.. شخص ما قد قُبِّض مالاً." ثم بدأت تنشج وتتنهد. بدأت رنا أيوب في البكاء أيضاً. قالت: "لا أستطيع تحمل المزيد. هذا كثير للغاية."

ودَّعت رنا أيوب فامِدا، ووعدتها بالعودة ومعها دواء الكِلى. (بعد بضعة أسابيع، فعلت ذلك). لقد كان يتملَّكنا شعور بالخطر.. أننا كنا نشهد بداية شيء سيستمر لسنوات عديدة. قالت رنا أيوب: "أشعر بهذا لكوني مسلمة. هذا يحدث في كل مكان في الهند."

مضينا بصمت لفترة من الوقت. اقترحْتُ عليها أن الوقت ربما قد حان لمغادرة الهند.. أن المسلمين ليس لهم مستقبل هناك. لكن رنا أيوب كانت تراجع دفتراً.. قالت: "أنا لن أغادر. لا بد لي من البقاء. سأكتب كل هذا وأقول للجميع ما حدث."